ربيع جابر

الاعترافات

رواية

كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

الكتب هي ثورة العالم المخزونة ، والارث المناسب للأجيال والأمم

اضغط هنا منتدى مكتبة الاسكندرية

صفحتي الشخصية على الفيسبوک

جديد الكتب على زاد المعرفة 1

صفحة زاد المعرفة 2

الأعمال الكاملة : من هنا

المسرح العربي والعالمي

لتحميل روائع الأدب العربي والعالمي : القصة والرواية من هنا

لتحميل كتب المنظمة العربية للترجمة من هنا

بيت الحكمة

كتب الفلسفة والدراسات السياسية

اجتماع تربية وعلم نفس

كتب السياسة ، اقتصاد وقانون

الصحافة والإعلام-الفنون السبعة

سلاسل كتب ، مجلات ودوريات

مكتبة نوبل

كتب مشروع كلمة

موسوعات قواميس ومعاجم

كتب العلوم والطبيعة

أضغط هنا مكتبتي على تويتر

ومن هنا عشرات آلاف الكتب زاد المعرفة جوجل

ربيع جابر

الاعترافات

الاعترافات

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الأولى، 2008

ISBN: 978-9953-89-061-6

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 40006 سيدنا
هاتف 2303339 ـ 2 ـ 212
فاكس: 2305726
e-mail:markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: ص.ب: 5158 ـ 113 الحمرا
هاتف: 352826 ـ 343701

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب: 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال، وأيّ شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقيَّة هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرّد عن أيّ قصد.

«أبي كان يخطف الناس ويقتلهم. أخي يقول إنَّه رأى أبي يتحوّل في الحرب من شخص يعرفه إلى شخص لا يعرفه. هذا أخي الكبير. أخي الصغير لم أعرفه، أعرف صورته، أعرف وجهه، يشبهني في الصور ـ كان يشبهني ـ أكثر ممّا يشبه أخي الكبير. أسمّيه أخي الصغير وكنّا كلّنا في البيت نسمّيه ـ في رؤوسنا نسمّيه، وحتى من دون أن نذكره ونحن نحكي، كانت صوره تملأ البيت ـ ماذا كنت أقول؟ أسمّيه أخي الصغير ولم يكن أخي الصغير ولكنَّه الصغير لأنَّه ظلَّ صغيرًا، لأنَّه لم يكبر، لأنَّهم قتلوه وهو صغير.

كم مرَّة رأيت أخواتي ساكتات في الصالون (كان الصالون غرفة البيت الآمنة والملجأ ساعة القصف) كأنَّهنّ في جنازة، يتوزّعن على الكنبة الطويلة ذات الغطاء المخمل الزيتي، وينظرن إلى صورته المكبَّرة المعلَّقة على الحائط، وعلى زاوية الصورة الشريط الأسود؟ كم مرَّة رأيت أختي الكبيرة تلتفت دامعة وتنظر إليّ أدخل حاملاً سندويشة ـ كل الوقت آكل سندويشات يروق القصف عند الغروب فتركض أمّي إلى المطبخ؛ تنبّه عليّ ألاَّ ألحقها إلى المطبخ لكنّني ألحقها؛ أمّي تلفّ سندويشات مرتديلا وخيار وأنا آكلها ـ أذكر أختي الآن كأنَّ هذه السنوات كلّها لم تمرّ، مرَّت ولم تمرّ، أذكرها الآن تلتفت بشعرها الأسود الذي يؤطّر وجهها الناصع البياض

وتنظر إليّ من تحت رموشها الطويلة ثم ترفع عينيها وتنظر إلى الصورة. . . أذكر البلل على الرموش، لا أنسى تلك الصورة. لم أكن أعرف عندئذ ـ وكيف أعرف؟ ـ أنَّها مثل أخواتي جميعًا لا تنظر إلى وجهي إلاَّ وتشعر بقلبها يتقطّع، ينفصل إلى قطعتين. . . إلى هذه اللحظة لا أنسى ملامح وجهها وكيف تتبدّل الملامح، الحبّ والكره والحيرة والخوف والغضب، ملامح لا أفهم كيف ترتسم على الوجه ثمّ تتبدّد وتحلّ مكانها ملامح أخرى. كيف يتبدّل الوجه في رمشة عين؟ الغيوم لا تتراكض في السماء بهذه السرعة. . . ماذا كانت تشعر وهي تنظر إليّ ثم إلى الصورة؟ أخي الكبير كان مرّات يدفعني في صدري ويزيحني من دربه، نلتقي في الممرّ، بين الصالون والمطبخ، وأنظر إليه وأراه ينظر إليّ نظرة غريبة: كأنّه لا يطيق وجهي. يكشّر عن أسنانه مثل ذئب وأنا لا أفهم. . . وقت طويل مرّ وحتى الآن لا أدري كيف أحكي قصّتي. كل هذا صعب. كل هذه السنوات مرّت ومازلت لا أستطيع، مازلت أعجز. كأنّ الحكي يسدّ زلعومي. أشعر بالكلمات وهي تصعد من بطني، من قلبي، كأنَّ الوحل يخرج منّي وأنا أحكي. لكنّه ليس وحلاً.

من أقدم ذكرياتي في بيت الأشرفيّة هذه الذكرى. لعلّها من الأيّام الأخيرة في «حرب السنتين»، لست متأكّدًا متى. لكنّها في تلك الفترة، هذا أعرفه بالتأكيد، في الفترة الأخيرة من «حرب السنتين»، ليس في 1975، هذا ثابت، لكن في الـ 76، وليس في بداية الـ 76 لأنّني في بداية الـ 76 كنت طريح الفراش، مريضًا، محمومًا، أتقلّب بين الحياة والموت، ولا أفتح فمي، ولا أنطق

كلمة. نجوت وكُتبت لي حياة جديدة. ما أذكره من ذلك الوقت ـ وقت المرض ـ غامض وغريب وغير ثابت. سأتحدّث عن هذا لاحقًا: كل ذكرياتي من تلك الفترة الأولى متشابكة ولا أثق فيها، لا أدري هل هي ذكريات حقيقيّة أم ذكريات متخيّلة، تتشابك بالمنامات وتتشابك بما سمعته بعد ذلك من أخواتي وأخي الكبير وأمي (أبي لم يكن يحكي كثيرًا). أقدم ذكرياتي ـ التي أعرف أنَّها تخصّني وأنَّها حقيقيّة ولم يخترعها أحد ولم أخترعها أنا أيضًا ـ أقدم ذكرياتي من بيت الأشرفيّة هذه الذكرى: أبي يحرق ثيابًا ودفاتر في الجلّ وراء البيت. أذكر النار والعيدان والموقد المعمول من حجارة كبيرة. أذكر النار المشتعلة خارج الموقد على الأرض، على التراب، حيث أرى أمّي تضع قدر الغسيل (كانت الكهرباء تنقطع كثيرًا، وكنت أرى أمّي مع أخواتي يغسلن الغسيل باليد تحت الخوخة). أذكر أبي، قاتم الوجه، لا يشبه أبي، أذكر وجهه الملبّد بالغيوم وهو يخرج أشياء لا أعرف ماذا تكون من كيس جنفيص عميق ويرميها إلى النار. أذكر ألسنة اللهب تقفز وتلحس جفنيه وشعر رأسه. كان يتحرّك حول النار، كانت حركته بطيئة، وأنا جامد في الداخل، جنب طاولة المطبخ، أنظر عبر الباب المفتوح ولا أتنفّس. مازلت حتى هذه اللحظة أذكر خوفي، لم أكن أفهم ماذا يحدث.

في المقابل عندي ذكرى أخرى من تلك الفترة، ذكرى أحبّها وأحبّ أن أسترجعها دائمًا: نحن كلّنا في غرفة القعود ـ القصف متوقّف منذ أيّام، ربما منذ أسابيع، لا أقدر أن أحدّد، لكنّ الشعور بالأمان شبه كامل، وكأنَّنا لسنا في فترة وقف إطلاق نار مهدّدة أن

تُخرق في أيّ لحظة، فلا أحد كان يصدّق هذا الـ «وقف إطلاق نار». . . لا، كأنّنا فعلاً في زمن سلم، مع أنَّ الحرب لم تكن انتهت، «حرب السنتين» كانت لا تزال دائرة، ومع هذا كنّا في تلك الجلسة نجلس كأنَّ الحرب لا تجري، كأنَّ الحرب لم تحدث ـ كلّنا في غرفة القعود، والطاولة الخشب المستديرة القابلة للطيّ، الطاولة بيننا، وأمّي تسكب الكشك الساخن في الصحون، ونحن كلّنا نتحلّق حول الطاولة. أبي يقطع الخبز ويوزّعه علينا، أذكر يديه الكبيرتين والشعر على عقد الأصابع. . . أخي يتناول منه الأرغفة المقطوعة ويفتح الأرغفة ويضع خبزًا بين صحنه وصحن أختي الصغرى ـ دائمًا تجلس إلى يمينه. إحدى أخواتي تتضاحك وهي ترى هذه الحركة. يقاسم أختي الصغرى الخبز لأنَّها لا تأكل إلاَّ قليلاً. نخاف عليها من فقر الدم، لا تأكل شيئًا. تحبّ الحليب لكن لا تحبّ الأكل. هذا كلّه جزء من الذكرى: عندما أتذكّر قعدتنا في ذلك الصباح البعيد، نأكل الكشك الساخن وننظر إلى البخار يرتفع من الصحون التي تفرغ سريعًا، أتذكّر تفاصيل لا تحصى عن أخواتي جميعًا وعن أخي وعن أبي وعن أمّي. أتذكّر مثلاً السكين في يد أختي الكبيرة وهي تقشّر البصل وتقطع كل بصلة إلى أربع قطع وتوزّع القطع. أذكر سلّة البصل والقشر يتجمّع في السلّة. بعد سنوات سأرى منامات تحيّرني: أرى الجلسة ذاتها لكنّني أرى وجوهًا أخرى. أكثر من ذلك: أرى وجاقًا كبيرًا يتوسّط الغرفة وعلى سطح الوجاق أرى شرائح البصل البيضاء يتغيّر لونها إلى الأسود وهي تشوى. أرى أيضًا أرغفة خبز تتحمّص جنب قطع البصل. المشهد كلّه يتغيّر: هذا ليس بيت الأشرفيّة! هذا بيت آخر!

وأرى وجوهًا غريبة وليست غريبة. من هؤلاء؟ ماذا تعني هذه الذكرى؟ هذا ـ في ذلك الزمن الأوّل ـ كان يعذّبني كثيرًا. يعذّبني؟ هذه الكلمة لا تقول ما أريد قوله. كنت أحتار ولا أعرف لماذا تتمسّك بي هذه الحيرة: لا أفهم لماذا أهتمّ بهذه المنامات غير المفهومة أصلاً!

هناك ذكرى أخرى من تلك الفترة، هذه لا تمتزج بذكرى أخرى، خالية من الشوائب، وعزيزة أيضًا: أمّي في المطبخ تصنع لنا حلويات. لعلّه عيد من الأعياد، وهي تعجن وتعدّ أقراص المعمول، أذكر التمر على الطاولة، وأذكر أختي الكبيرة تدقّ الفستق الحلبي. لكن أكثر ما أذكره الطحين على ثوب أمي، ورائحة السمن وماء الزهر، والمكان الدافئ ـ الفرن يملأ المكان حرارة ـ وأمّي عندما تنظر إليّ تبدو كأنّها نائمة، كأنّها ناعسة، كأنّها تصنع لنا المعمول وهي نائمة، كأنّها مخدّرة، كأنّها تتحرّك في منام وهي تمزج المادّة الخضراء بالسمنة أو بالزبدة لا أعلم... الذكرى بعيدة وأحيانًا يخيّل إليّ أنّ هذه هي أقدم ذكرياتي، وليست تلك الذكرى الأخرى ـ أبي يحرق أشياء. لا أعرف. لعلّ هذا غير مهمّ في النهاية. (حاولت كثيرًا ـ ستعرف أنّ هذا مهمّ في حياتي ـ حاولت كثيرًا أن أحدّد عمر هذه الذكريات الأولى وأن أرتّبها منظّمة، لعلّني أفهم، لعلّني أصل إلى البداية... لكن هذا صعب، شديد الصعوبة. ثم إنّ الذكريات تخدع. كنت أحيانًا أتذكّر شجرة الخوخ مزهرة، الشجرة وراء البيت، غير بعيد من الموقدة. في مرّات أخرى أراها سوداء، عارية من الورق تمامًا، يابسة، إذا لمسها اللهب من النار التي أشعلها أبي تشرقط وتحترق وتتحوّل

رمادًا في لحظة. الذكريات تخدع، وفي حالتي أنا تخدع مرّتين. تخدع مرّتين. فأنا لست أنا).

ذكرى واحدة بعد ثم أُكمل: أبي يحملني على كتفيه ويخوض نهرًا. أنا أتمسّك برأسه لئلاّ أقع، وأخي الكبير يضحك وهو يساعد أخواتي على عبور الماء، وأمّي في الجهة الأخرى تنتظرنا وهي تضحك (حملها أبي أوّلاً. حملها على ظهره، ولا أنسى إلى الآن ضحكاتها وضحكات أخواتي وهو يخوض في المياه الخضراء ويختفي لحظة تحت ظلال الشجر الأخضر ثم يظهر من جديد في الجانب الآخر. أظنُّ هذا نهر إبراهيم، أظنّ أنّنا كنّا نقضي النهار هناك. مرّات كنّا نصعد إلى مار شربل، ومرّات كنّا نذهب إلى نهر إبراهيم. نأخذ سلال الطعام ونذهب ونقضي النهار كلّه فوق ولا نرجع إلى الأشرفيّة إلاّ عندما تغيب الشمس). أذكر مياه النهر تقترب من وجهي ثم تبتعد، بينما أبي يخطو بين الصخور والماء يغمر ساقيه ويصل إلى قماش البنطلون الذي طواه إلى فوق الركبة. أذكر الرائحة ـ رائحة التبغ والقميص والعرق ـ رائحته. وأذكر إحدى أخواتي تناديني فأدور بجسمي راكبًا على كتفيه وهو يمسك بقدميّ ـ كفّاه كبيرتان ويمسك بقدمي ويضحك ـ أدور وأنظر إلى أختي التي تناديني: أراها واقفة عند السيّارة البيجو الزرقاء (بيجو 504، كانت جديدة فقي ذلك الحين، كنت لا ترى إلاّ البيجو البيضاء الـ 404 القديمة حتى ذلك الوقت في شوارع بيروت، الـ 504 الزرقاء كانت جديدة). أراها واقفة عند السيّارة، ومقدّمة السيّارة داخلة بين الوزّال والشوك ـ أبي يفعل هذا لإخافة أمّي، يتأخّر قبل أن يدوس الفرامل ـ وأبواب السيّارة مفتوحة والصندوق

مفتوح أيضًا. تقف وحدها وفي يدها الراديو وفي الأخرى كيس أذكر الراديو، لونه أحمر، كبير الحجم، وإبرته مكسورة، تحرّكها بإصبعها إذا أرادت تبديل القناة. لا أذكر إلاَّ الضحك الصافي وماء النهر، هذا هو الصوت الذي أذكره من تلك النزهة. الشمس تسيل على النهر، حبّات الضوء تلمع على حبّات الماء، وأخي يجمع الحطب وأنا أساعده وأبي يبني موقدًا صغيرًا وأمّي تشرف على أخواتي بينما اللحم يُشكّ في الأسياخ.

لا أستطيع أن أرتاب بهذه الذكريات لأنَّها جزء منّي. هذا كلّه أنا. ولكن. . . اسمع: في الحرب، في ذلك الزمن الأوّل، كان العالم غير مفهوم. لعلّ السبب سنّي، ليس الحرب، بل سنواتي القليلة: كنت صغيرًا وكنت أخاف كثيرًا. بلى، هذا أذكره، أذكره دائمًا، خوفي.

أخي الكبير كان يخاف أيضًا لكن لا يخاف على نفسه. كان يخاف على أمّي. أنا تعلّمت أن أحبّه وأنا أنظر إليه وهو يحبّ أمّي. كان يرعاها كأنَّها ابنته الصغيرة. لن تصدّق كيف كان يرعاها. منذ ذلك الزمن الأوّل وهو يرعاها. كان يرعاها كأنَّها ابنته؟ لا، كان يرعاها كأنَّها أمّه هو وحده، كأنَّه ابنها الوحيد، كأنّها لم تُعطَ غيره في هذا العالم. كان يقسو علينا جميعًا إذا رآها متعبة، أو شاردة حزينة. إذا تعبت في أشغال البيت يعلو صوته وهو يكلّم أخواتي. مع أنَّهنّ جميعًا ـ إلاَّ ليليان الصغيرة ـ كنّ يساعدنها.

أبي يظلّ ساكتًا وهو يسمع أخي يُعنّف أخواتي. أخي وحده

يتراجع إذا انتبه أنَّ أبي يسمعه. عندما يحضر أبي يبدو أخي منكسرًا. في حضور أبي لا يدفعني أبدًا. بيننا تسعة أعوام. مرّة دفعني على الدرج، تعثّرت ولم أتمكّن من التوازن وارتطم رأسي بالحائط. نقطة دم خرجت من صدغي. حملني وكاد أن يبكي وهو يُحلّفني بأمّي ألاّ أخبر أحدًا. قلت له لن أخبر أحدًا. وسألته لماذا دفعني؟ نكون نلعب، ولا أدري ماذا يحدث. من دون سبب يتغيّر؛ كأنَّه تذكّر شيئًا، كأنَّه للتوّ تذكّر شيئًا. هكذا، في رمشة عين، ينقلب عليّ.

في البدء كانت الأشياء، كل الأشياء، غير مفهومة. في الكنيسة، أثناء القداديس، أذكر أمّي تضع يدًا حارّة على رأسي، وأذكر اليد ترتجف. أسمعها تبكي ولا أعرف لماذا. عيناي معلّقتان بالرجل الواقف عند المذبح، يحمل مبخرة ثقيلة كبيرة بسلاسل، لونها كالذهب، ويؤرجحها أمامه، أمام صدره الكبير المغطّى بالثوب الثمين القاتم... التراتيل تملأ فضاء الكنيسة، فضاء رحب مملوء بخورًا، وأمّي يدها على رأسي كأنَّها تتلمّس عظام جمجمتي، اليد على رأسي ثقيلة وحارّة وترجف. لماذا ترجف يدها هكذا، كأنَّ حيوانًا صغير الحجم يبكي قاعدًا على رأسي. ما بها أمّي؟ مرّات يخيّل إليَّ أنَّ الوجوه تلتفت (جارات أعرفهنّ، جارات أراهنّ وأعرف أسماءهنّ من كلام أخواتي، ولكن أيضًا نساء لا أعرفهنّ، لسن من هذا الحيّ، في القداديس أرى وجوهًا كثيرة غريبة) الوجوه تلتفت وتحدّق إليّ، لا أكون متأكّدًا، لعلّها تحدّق إلى أمّي، لعلّ العيون تنظر إلى ثيابي النظيفة المكويّة، لا أدري. لا أرى الوجوه تلبس هذه الأقنعة الغامضة وهي تنظر إلى أخواتي.

كان أخي الكبير يأتي معنا في البداية: في ذلك الوقت لم أكن أرى الوجوه تتغيّر هكذا إذا نظرت إليه. هل أنا واهم؟ أرجع إلى البيت وأنا أشعر بالضعف. كأنَّ شيئًا خرج منّي، كأنَّ القوّة خرجت من جسمي تحت تلك النظرات. كنت صغيرًا، لم أكن أفكّر هكذا، لكنّني الآن عندما أتذكّر ذلك الصغير الذي كان أنا أتذكّره هكذا. أعرفه الآن أكثر ممّا كان يعرف نفسه. أعرفه الآن.

أذكره وحده في الصالون يرفع عينيه إلى الصورة المعلّقة. ينظر إلى الأخ الصغير ويرى الأخيلة على زجاج الصورة. الصورة المكبّرة في إطار من الخشب الأسود، وفي الزاوية العالية الشريط الأسود. لا يصعد على الكنبة ولا يرفع يده ولا يلمس إطار الصورة. أخته الصغرى تفعل ذلك مرّات ولا يفهم لماذا تفعل ذلك: تلمس الإطار المجدول أم تحاول لمس الوجه الباسم تحت الزجاج؟ أخته الكبيرة تمسح الزجاج بقماشة مبلولة. تمسحها على مهل، طالما رآها دامعة وهي تمسح الصورة. الآن لا أتذكّرها تمسح الصورة إلاَّ دامعة. مع أنَّ هذا غير منطقي، أعرف أنَّ هذا غير صحيح، أعرف أنَّها مسحت الغبار عن صورة الأخ الصغير مرّات لا تحصى من دون أن تدمع عينها. يمضي الوقت والواحد يتغيّر، والأشياء تصير جزءًا من طبيعة الأشياء، ولا تفكّر وهي تمسح زجاج هذه الصورة في ما تفعله، وتتابع مسح الغبار عن مسند الكنبة الخشبي وعن الطاولة الصغيرة حيث يضع أبوها المنفضة الحجر.

يمضي الوقت ويتغيّر الواحد؟ إيليّا ـ أخي الكبير ـ كان يقول لي

إنَّ أبي تغيّر من شخص إلى آخر في يوم وليلة. «بيوم وليلة»، عبارة أخي لا أنساها لأنَّها بقيت كالعلامة في رأسي، سأسترجعها كثيرًا في ساعات مختلفة من حياتي، سأسترجعها كثيرًا لأنّني سأفكّر فيما بعد أنَّني أنا أيضًا، ومثله، ومثل أبي، تغيّرت في يوم وليلة. إيليّا لم يقل إنَّ أبي تحوّل من إنسان إلى وحش؛ غيره قالوا ذلك. إيليّا أخبرني لاحقًا أشياء فظيعة كثيرة. هو أيضًا (إيليّا) تغيّر وهو يسمع تلك الأشياء. ناس يعرفوننا وعندهم أقارب في الحيّ، ناس يتردّدون على حيّنا وعندهم دائمًا دعسة رِجل في السيوفي رأوه على جسر الباشا. قالوا إنَّهم كانوا مارّين من هناك وعندما رأوه لم يصدّقوا أنَّه هو. لكنّه هو. كان يُخرج الناس من السيّارات ويضربهم، يقوّص عليهم ويرميهم عن الجسر.

إيليّا كان يخبرني تلك الأشياء من دون أن يرتجف صوته. كان الوقت قد مرّ عليها. لكنّه وهو يخبرني كنت أشعر أنَّ الوقت لم يمرَّ: هل صحيح أنَّ السنوات مرَّت؟ كنّا في «مستشفى رزق»، الوقت ليل والمكان ساكن. أبي في غرفة العمليّات، وأخي يحكي. أنا لا أعرف هل سأرى أبي حيًّا مرَّة أخرى، وأخي يتذكّره «وحشًا» على جسر الباشا وفي تل الزعتر وفي الكرنتينا! أخواتي ذهبن، خرجن من هنا على أن يرجعن بعد ساعة (العمليّة طويلة، قال الطبيب)، وإيليّا بدأ يحكي. لا أدري ماذا حدث له. لا أعرف ماذا فكّرت وأنا أسمع كلماته، أعرف أنَّ المكان تغيّر، اختفت مقاعد الانتظار وهو يحكي، اختفت البوّابة المفتوحة على الشرفة والأشجار القديمة، اختفى التمثال في نهاية الممرّ، اختفت الحيطان البيضاء، اختفت الحياة التي أعرفها. لم أعد أعرف أين

أنا. المفروض أنّني في قاعة الانتظار، المفروض أنّه الليل والمرضى ينامون على أسرّة متشابهة في غرف متشابهة. المفروض أنَّ هذه الشرفة تطلّ على أشجار عالية (سرو؟ شربين؟) على باحة تتوسّط المستشفى في الأشرفيّة التي أعرفها كما أعرف خطوط يدي. المفروض أنّنا هنا، أنا وأخي، وبعد قليل تعود أخواتي. المفروض أنّنا هنا ننتظر أبي، ننتظر خروج أبي من غرفة العناية الفائقة. لا؟ مازال تحت السكّين؟ تحت يد الجرّاح الذي تعرفه أختي، وتعرف زوجته وتعرف بيته في بناية بيرتي وتعرف أنَّه أمهر جرّاح لا في الأشرفيّة فقط، لا في «الشرقيّة» فقط، لا في بيروت فقط، ولكن في لبنان كلّه! المفروض أنَّها قاعة انتظار ـ هذه رائحة المطهّرات التي أعرفها ـ وأنا مع أخي أنتظر خروج أبي من العمليّة الصعبة: يفتحون رأس أبي الآن، يفتحون الرأس في الداخل الآن، تحت المصابيح القويّة الضوء، ويستأصلون الورم بالسكاكين الرفيعة. الورم يضغط على أعصاب العين الآن، بعد وقت قد يفقد بصره، قال الطبيب، لكن إذا لم نُخرج هذا الورم فهو سيكبر ويكبر إلى أن. . . أن ماذا؟ يصير الورم أكبر من الدماغ؟

هذا ليس وقتك يا إيليّا، ليس وقت ذكرياتك! إيليّا يحكي عن أبي وكيف تحوّل بين ليلة وضحاها إلى شخص لا يعرفه وأنا لا أستوعب لماذا يخبرني هذا الآن، دائمًا كنت أسأله ودائمًا كان لا يخبرني. . . لماذا الآن يحكي؟ لماذا في هذه الساعة يفتح فمه والسدّ ينكسر والوحل يتدفّق وأنا أغرق في هذا المستنقع!

لا أحد كان يحكي أمامي. طالما أردت أن يخبروني عن أخي

الصغير. لا أحد كان يحكي. زمن طويل انتظرت، زمن طويل. وفي أصعب ساعة أخبروني! أسمّيه أخي الصغير ولم يكن أخي الصغير ولكنّه الصغير لأنَّه ظلَّ صغيرًا، لأنَّه لم يكبر، لأنّهم قتلوه وهو صغير.

لا أحد كان يجيب على أسئلتي. أذكر عندما كسرت أختي نجوى ساقها، كسرت ساقها أثناء «حرب المئة يوم»، هذه بعد «حرب السنتين»؛ في «حرب المئة يوم» قُصفت الأشرفيّة حتى لم يبقَ في نوافذها لوح زجاج واحد، البيت يرتجّ بالقصف، وأختي تمرّدت على أمّي (أبي لم يكن في البيت) تمرّدت عليها وخرجت من الملجأ: خرجت من الصالون المحصّن بموقعه الطبيعي وبأكياس الرمل التي تسدّ نافذته، خرجت من الحصن ومضت إلى المطبخ. كانت جائعة. قالت إنَّها ستذهب وتأتي بالخبز وعلبة الجبنة. كانت تكذب. أرادت الصعود إلى التتخيتة كي تجلب حلوى: مرطبان من الدرّاق المكبوس بالقطر. في وقت الخطر كانت نفسها تطلب دائمًا السكّر. وقعت عن السلم وهي تصعد إلى التتخيتة. كسرت ساقها.

لازمتها في فترة النقاهة. كانت طريحة الفراش، تتألّم. ترسلني لأجلب لها شيئًا فأذهب بسرعة وأرجع بسرعة. في تلك الفترة صارت تلمس وجهي بأصابعها، تتلمّس وجهي كأنَّني معمول من زجاج وتقول إنَّها تحبّني، أنَّها تحبّني كثيرًا. كنت صغيرًا ولا أفهم. مازلت لا أفهم. تلمس وجهي وتقول «يا حبيبي يا مارون، أنا أحبّك كثيرًا يا مارون». كنت أقول لها «وأنا أيضًا أحبّك يا أختي

نجوى». ومرّات تصير تبكي. شيء ما في أعماقي، شيء غامض وسرّي وغير قابل للمس، شيء ما كان يقول لي إنَّ هذا كلّه على علاقة بأخي الميت. لكن ماذا ولماذا، لم أكن أقدر أن أعرف. كنت صغيرًا والواحد وهو صغير لا يفكّر في كل هذه الأشياء. يستقبل العاطفة الجيّاشة، يستقبل اللمسات الحارّة، ويعانق الجسم الذي يعانقه، ولا يسأل نفسه أسئلة كثيرة. يكفيه هذا الحبّ، هذا الفوران الحلو للعاطفة. هذا الدفء يكفي. لا يطلب أكثر بينما الأمطار تقع في الخارج، والرِّيح تُسمع وهي تضرب شجرة الخوخ عند سكوت القصف. لماذا يطلب أكثر؟ أذكر الولد الصغير الذي كان أنا، أذكره يخربش بقلم الرصاص على جفصين الساق المكسورة، وأذكر الأخت ـ هذه نجوى ذات الغمّازتين، إذا أرادت أن تأكل بندورة تقضمها كأنَّها تقضم تفاحة ـ تجذب الصغير إليها وتلاعبه وتمشّط شعره بالمشط العاج الأبيض.

«أنت حبيبي يا مارون»، كلماتها كالعسل باقية. عندما هجمت المرارة هجمت على كلماتها أيضًا؟ أريد أن أخبرك قصّتي. لكن هذا صعب. أنت لا تتخيّل كم أجد هذا كلّه صعبًا.

إيليّا قال إنَّ أبي ضرب يده على رأسه، «خبط يده على رأسه». قال إنَّه كان ماسكًا سمّاعة الهاتف بيده اليسرى ورفع اليمنى وخبط رأسه. قال إنَّ رأسه ارتجّ بتلك الخبطة. قال إيليّا إنَّ أبي خرج من البيت راكضًا وهو في المشّاية؛ لم ينتعل صبّاطه.

مهمّ أن أخبرك القصّة بالترتيب لكنّها تهجم عليّ هكذا. أشعر أنّني غير قادر، أنّني... الصور تطفو وأنا لا أقدر. لكن سأحاول.

كي أخبرك قصّتي عليّ أن أبدأ من أخي الصغير. خطفوه وقتلوه. كان ولدًا لم يتجاوز العاشرة، خطفوه وقتلوه ورموه ممزّق الثياب على الطريق الصاعدة من «المتحف» ـ منطقة خطّ التماس ـ إلى أوتيل ديو (الأشرفيّة). أحد عناصر الكتائب، واحد من أقارب زوج خالتي، عرف الجثّة الصغيرة المدمّاة واتصل بأبي. حتى من دون هذا الرجل كان الخبر سيصل. أبي وزّع صورة أخي الصغير على المستشفيات والمخافر، وزّعها على مراكز الكتائب والأحرار، وزّعها على مراكز الدفاع المدني والرابطة، وزّعها على الجرايد، حتى على الدكاكين ومحلات الفليبرز وزّعها. إيليّا كان يأخذ الصور ويدور على الدكاكين. وطبعوا الصورة على ملصق وإيليّا ذهب مع أبي وأولاد خالي ولم يتركوا حائطًا في الأشرفيّة ولم يتركوا حائطًا في منطقة التماس إلاّ وألصقوا الصورة. وتحت الصورة الاسم والعنوان ورقم الهاتف. ناس اتصلوا وطلبوا فدية. بان بعد ذلك أن لا علاقة لهم بالخطف، أنّهم يتاجرون... هذه كلّها تفاصيل بلا قيمة، المهمّ النهاية. تلفنوا لأبي من مركز الكتائب وتلفنوا لأبي من أوتيل ديو وقالوا له أن يأتي ويتعرّف على ابنه. إيليّا رآه يخبط رأسه ويقفز ويترك البيت وهو في المشّاية. منذ تلك اللحظة لم يعد هو، قال إيليّا.

إيليّا لحق به. لم يذهب وحده. جيران من الحيّ ذهبوا معه. جارنا الطبيب فيليب بردويل ـ الذي سيعالجني من جرح الرصاصة بعد ذلك ـ كان أيضًا. إيليّا كان يحبّ الطبيب لأنّه كان يهتمّ بأمي: لولا أدوية ابن بردويل كانت أمي ماتت. أكثر من مرّة أمسكوا بها تحاول أن تقفز عن السطح. في إحدى الليالي غافلتهم وفرّت من

البيت. عثروا عليها تلطم رأسها بالحائط جنب مطعم الفول والحمّص، عند الزاوية. المطعم تتسع الطريق أمامه؛ هناك كان الأولاد يتجمّعون ويلعبون بالطابة. أحيانًا تطير الطابة وتقع في الحديقة المسوّرة أمام بيت المختار. زوجة المختار تصيح وأخي الصغير يضحك. قالت لأمّي إنَّه عفريت. كل أهل الحيّ كانوا يقولون له ذلك: «العفريت الصغير». ويقولون لأبي. ويقولون لجدّي عندما يأتي إلى بيتنا. كان اسمه «العفريت الصغير». يكسر الشبابيك بالطابة لكنّهم يحبّونه. أبيض، أشقر، سريع، مملوء ضحكًا. خطفوه وقتلوه ورموه مقطّع الثياب دامي الجثّة على الطريق الصاعدة من المتحف إلى أوتيل ديو. عناصر الربط نزلوا مع الصليب الأحمر وحملوا الجثث إلى برّاد أوتيل ديو: لم يكن وحده. سبعة أولاد صغار؛ جثث صغيرة متخشّبة اتّسعت كلّها في عربة واحدة.

إيليّا رأى أبي حاملاً الجسم الصغير، واقفًا في الممرّ الطويل الأبيض، يميل وكتفه يرتطم بالحائط. لم يبكِ. قال إنَّه لم يبكِ. هكذا قال إيليّا. قال إنَّه لا يقدر أن ينسى حركة جسمه: كيف يميل على جهة واحدة ويرتطم بالحائط ثم يستقيم من جديد. مثل عمود يقع، يميل ويقع، ثم يرجع إلى مكانه. إيليّا قال إنَّ أبي كان بلا وجه عندئذٍ، نظر إليه ولم يرَ وجهًا. «لم يكن يبكي»، أكثر من مرَّة كرّر إيليّا هذه الكلمات ونحن نقعد في صالة الانتظار في «مستشفى رزق» تلك الليلة: ننتظر خروج أبي من غرفة العمليّات وإيليّا يحكي ويحكي ويحكي. وأنا أفكّر أنّني في جهنّم.

قال إنَّ أبي أخذ الجثّة الصغيرة بين يديه وخرج من «أوتيل ديو». ناس من المستشفى وناس من الحيّ حاولوا منعه. لم يقدر أحد أن يصدّه. أخذ جثّة أخي الصغير ومشى من «أوتيل ديو» إلى بيت أحد أقاربنا من آل أسطفان. هذا البيت كان يبعد مسافة قصيرة عن أوتيل ديو. وكان فارغًا. أبي معه المفتاح. أصحاب البيت في فرنسا وأبي معه المفتاح، يأتي إلى البيت مرَّة كل يومين أو ثلاثة ويحميه من السرقة ومن المهجّرين.

إيليّا قال «كان بلا وجه». وقال إنَّه رأى وجهه فقط عندما استدار وقال له أن يذهب إلى البيت، أن يسبقه إلى البيت. ناطور البناية كان يفتح البوّابة، والمفاتيح الكثيرة تطرطق في فراغ الدرج، وصراخ الجيران يعلو ثمّ يموت فجأة. من أين تأتي هذه الأصوات؟ إيليّا لم يرَ وجه أبي إلاَّ عندما تكلّم. قال له أن يسبقه إلى البيت، جنب التخت على الكومودينة علبة الدواء، العلبة الخضراء، ثلاثة حبوب في كوب ماء، «ليس حبّة واحدة، ليس حبّتين، ثلاث حبوب تضعها في الكوب لأمّك ولا تخبرها، لن أتأخّر».

إيليّا لم يقبل. ابن بردويل (الطبيب) سأل أبي ماذا يريد وتكلّم معه. إيليّا لم يسمع ماذا قال الطبيب ولم يسمع ماذا قال أبي. ذهب الطبيب مع الجيران وبقي إيليّا مع أبي في بيت آل أسطفان الفارغ.

بقي مع أبي ومع الجثّة. داخل البيت رأى الأشياء ولم يرَها. في «مستشفى رزق»، بعد كل تلك السنوات، قال لي إنَّه الآن يتذكّر كل ذلك كأنَّه يتذكّر منامًا. لم يكن منامًا. بينما يحكي شعرت بالنفس

يخرج من صدري فلا يرجع. رأيته هناك مع أبي وأخي الميت، يرى الأشياء ولا يراها في شقّة فارغة في بناية شبه فارغة. رأيت البناية بنوافذها المحطّمة تطلّ على خطّ التماس والجهة الأخرى ورصاص القنّاصة. رأيت النايلون المشدود على أطر النوافذ بدلاً من الزجاج. رأيت الجسم الصغير المقطّع الثياب على طاولة السفرة. رأيت إيليّا. كان وحده. كان مع أبي. لكنّه كان وحده. قال أبي شيئًا. إيليّا سمع الكلمات كأنَّها تصل من عالم آخر، من حياة أخرى. قال أبي إنَّه يريد أن يغسل أخي، يريد أن يغسل الدم عن الصبي قبل أن تراه أمّه. إيليّا قال إنَّ الدم كان يابسًا على الشعر؛ غسّلوه بالصابون والماء الساخن. الناطور ساعد أيضًا. وكذلك زوجة الناطور. لكن أبي لم يقبل أن يلمس أخي أحد. كان يأخذ منهم المياه الساخنة ويغسل الصغير وحده. إيليّا قال إنَّ الجسم كان مثل الخشبة، كأنَّه قطعة خشب، كأنَّه تمثال وليس ولدًا. كان في التاسعة، طوله 130 سنتمترًا، ويزن 24 كيلوغرامًا.

بعد الدفن لم تعد أمي تترك التخت. أنا لا أعرف شيئًا من ذلك الوقت، هذه كلّها ذكريات إيليّا. أمّي لزمت الفراش، مخدّرة، وأبي صار يختفي من البيت وعندما يرجع حاملاً السلاح يتجنّب الجيران طريقه. رائحته تغيّرت. وشكل وجهه تغيّر. طالت ذقنه وطال شعر رأسه. في تلك الفترة انتشرت القصص عن تلّ الزعتر والكرنتينا.

انتظرْ لحظة. لا تظنّ أنَّني سأخبرك قصصًا سمعت مثلها. كلّنا عشنا في هذا البلد وكلّنا عشنا قصصًا أو سمعنا قصصًا فظيعة. ما

سأحكيه لا يشبه شيئًا عرفته أو سمعته. أعرف أنَّ الناس هكذا. أعرف أنَّ كل واحد يظنّ حياته فريدة ولا تشبه حياة أخرى. وأعرف أنَّ كل حياة ثمينة وتختلف تمامًا عن كل حياة أخرى. أعرف كل هذا. لكنّني أقول لك: حياتي حقًّا مختلفة. لن أخبرك قصصًا سمعت مثلها. 18 سنة مضت على انتهاء الحرب الأهليّة والآن يكتبون في الجرايد أنَّنا على باب حرب جديدة: من جديد سنقتل بعضنا. الجرايد تكتب هذا والناس يقولون هذا لكن أنا لا أصدّق. لا أصدّق لأنَّنا تحاربنا 15 سنة وبعد 15 سنة علينا أن نرتاح، ربما بعد أربعين سنة أو خمسين نتحارب مرّة أخرى، هكذا يقول إيليّا. «لا أنصح أحدًا أن ينجب سلالة في هذا البلد»، هكذا يقول إيليّا.

لن أخبرك ما فعله أبي في الكرنتينا. ولا ما فعله أخي بعد ذلك. أبي ارتكب شناعات وأخي أيضًا. أخي أقلّ من أبي، وأخي اضطر أو على الأقلّ هو يقول إنَّه كان مضطرًّا. أبي لا يقول، أبي لم يحكِ أبدًا عن تلك الفترة. وعندما حكى أخيرًا أخبرني قصّة واحدة ولم يخبرني قصّة أخرى (القصّة التي تهمّني). كان يكره الكلام؛ أبي. كل ما أعرفه عن الكرنتينا عرفته من آخرين. الآن وأنا أقول لك هذا أرى البنايات أمامي (البنايات قبل أن تُجرف) وأرى صفًّا من أشجار الصفصاف وأرى الطريق المبلولة. كان البرد في الجوّ. كانوا يفصلون العائلات، يأمرون الرجال بالتجمّع تحت الدرج، ويأمرون النساء والأطفال بالخروج إلى الطريق. قالوا إنَّهم سيأخذون الرجال للتحقيق. لكنّهم رشّوهم بالرصاص تحت الدرج. لن أخبرك ما حدث بعد ذلك. أريد أن أخبرك القصّة التي تهمّني.

أبي لم يقاتل كثيرًا لكنّه خطف وقتل عددًا لا أعرفه من البشر. كانت هناك أيّام يختفي فيها دفعة واحدة مئة شخص أو مئتان أو 300. هنا، في بيروت. «السبت الأسود» يوم واحد. هناك أيّام أخرى كثيرة. قلت لك إنّني قضيت فترة من «حرب السنتين» مريضًا أتقلّب بين حياة وموت. وقلت لك إنَّ ذكرياتي الأولى كلّها مضطربة، متشابكة. زمن طويل مرَّ عليّ ـ بعد فترة الحمّى والدم الكثير الذي فقدته ـ زمن طويل مرّ عليّ وأنا أتحرّك متمهّلاً، بلا قوّة في جسمي. كنت أتمسّك بالطاولة، بالكنبة، بحافة السرير، وأنا أتنقّل بين الغرف ولا أدري أين أنا.

لكن إلى أيّ حدّ أقدر أن أتذكّر الأشياء بدقّة؟ هذا صعب، لن تعرف كم أجده صعبًا. أذكر نفسي ولا أذكر. كأنّني أتذكّر حياة عاشها غيري. غريب هذا الإحساس. وفي الوقت ذاته ليس غريبًا. اسمعْ: في الأيّام الأولى من الشتاء، دائمًا حين يبدأ البرد وتتساقط الأمطار أشعر بألم في صدري. كل سنة، كل سنة. هذا قديم. مرّات يكون الوخز حادًّا حتى أشهق طالبًا الهواء. هذه الأشياء الصغيرة ماذا تقول للواحد؟

عندما دخلت الجامعة في «الغربيّة» ـ بعد انتهاء الحرب سنة 1990 ـ فكّرت أنّني الآن في أمكنة خطرة. كنت أحاذر في كلامي، وانتبهت أنّني مثل أبي لا أحبّ الكلام كثيرًا. لم أنتبه إلى ذلك إلاّ بعد دخولي الجامعة. صرت أفكّر في أبي كثيرًا خلال تلك الفترة وأحاول أن أفهمه. كيف تفهم شخصًا يبني الحيطان حوله بلا توقّف؟ عندي صور، عندي ذكريات لا تعدّ عن أبي، أحيانًا تخنقني

هذه الذكريات. وما يخنقني أكثر ذكريات إيليّا عنه، وذكريات أخواتي. خصوصًا ذكريات الفترة الأولى من الحرب، خصوصًا تلك الذكريات.

كان يختفي من البيت أيّامًا وليالي. لم يبقَ أحد في السيوفي إلاّ وعرف ماذا يفعل. نصف الحواجز الطيّارة على المعابر من تنفيذه. معه رفاق لا يتركونه لحظة. ذاع صيته حتى صاروا هناك ـ وراء خطّ التماس ـ يعرفون اسمه. هكذا يقول إيليّا. هل يبالغ؟ وإذا كان لا يبالغ، إذا كان كل ذلك صحيحًا، إذا. . . اسمعْ: هذا كلّه مرهق، سأختصر ما أستطيع.

خَطَفَ عائلات وقتلها. على طريق الشام خَطَفَ، على ساحة البرج خطف، وراء اللعازاريّة خطف، على المتحف خطف، على بشارة الخوري خطف، على السوديكو خطف، على مستديرة الصيّاد خطف، على المونتيفردي خطف، على جسر الباشا خطف. . . كان يدور ويدور ويدور، يخطف ويقتل، يخطف ويقتل. إيليّا مرّة ـ بعد سنوات ـ أوقفني وراء مدرسة الفرير في الجمّيزة ودلّني إلى آثار رصاص في أحد الحيطان وقال «هنا كنّا نُصفّيهم».

كم مضى على «حرب السنتين»؟ 32 سنة، 33 سنة؟ الآن وأنا أحكي أشعر أنّني أكثر من شخص واحد: هناك شخص في داخلي يريد أن يحكي ويحكي ويحكي. هناك شخص آخر يريدني أن أسكت، أن أسكت أبديًّا وألاّ أفتح فمي مرّة أخرى.

أبي كان يخطف الناس ويقتلهم. في أحد الزواريب المجاورة

لساحة البرج، في أحد الزواريب غير البعيدة عن الساحة، أوقف سيّارة بيضاء اللون وطلب الهويّات. رجلان في المقدّمة وامرأة مع أولاد على المقعد الخلفي. الذي يقود السيّارة كان يرجف. كان مذعورًا. كيف وصل إلى تلك النقطة؟ دخل الزاروب خطأ؟ أضاع الطريق؟ السيّارة وحدها حملته إلى هنا؟ كان مذعورًا. ومثله الرجل على المقعد الآخر. المرأة على المقعد الخلفي زوجته؟ والأولاد. . . ثلاثة أو أربعة أولاد، من كانوا؟

لم يكن أبي وحده. كان على رأس رفاقه. حدث شيء وفتحوا النار. ربما لم يحدث شيء. ربما هذا ما كان يحدث دائمًا. قوّصوا على السيّارة. كانت متوقفة، الطريق مسدودة بسيّارتهم وبراميل، أين تذهب؟ قوّصوا على السيّارة. كانت تمطر. كان رذاذ خفيف يتساقط طوال ذلك اليوم وأبي ورفاقه يلبسون مشمّعات واقية من المطر. لعلّ الرجل أضاع الطريق بسبب المطر. بسبب المسّاحة المعطّلة. بسبب الخوف من الأمكنة الفارغة. الساحة فيها دكاكين ومكاتب ومطاعم مواقف وبنايات وصالات سينما. لكنّ المكان مهجور. هذه منطقة التماس والرجل الخائف أضاع الطريق والسيّارة وصلت أمام حاجز والذين خرجوا من أماكن خفيّة في مشمّعات واقية من المطر قوّصوا على الركّاب في السيّارة.

المرأة على المقعد الخلفي حضنت الأولاد بينما الرصاص يُخرج نوافير دم من جسمها. حضنت الأولاد وتغطّت بالزجاج الذي يتكسّر. أحد المسلّحين فتح الباب الخلفي (أحد البابين) كي يستحكم وهو يقوّص. فتح الباب فخرج من الباب صبي صغير، في

الرابعة أو الخامسة، أبيض، أشقر، كأنَّه استيقظ من النوم للتوّ والآن سينفجر بالبكاء: كانت على وجهه تلك النظرة (الصبي الصغير الأشقر الخارج من سيّارة تفور بالدم الساخن) نظرة ولد أيقظوه من النوم وهو لا يريد أن يستيقظ.

كان يلبس كنزة صوف بيضاء ومن ياقة الكنزة يخرج الدم والبقعة تتسع حتى تغطّي صدر الكنزة. أبي رآه واقترب منه ونظر إليه. أبعد رفيقه (كان الرشّاش حاميًا) وحمل الولد الذي يقع. لفّه ببطانيّة وأخذه.

الطبيب قال إنَّ الولد سيموت بسبب النزيف. مع هذا وضعوا له كيس دم تلو كيس دم. واستخرجوا شظايا الرصاص والزجاج من جسمه. الطبيب قال إنَّ الولد سيموت وسأل أبي أين عثر عليه. الطبيب يعرف أبي. أبي قال وجدناه على الطريق.

قال الطبيب إنَّه سيموت. لم يمت الولد. التهب جرحه وارتفعت حرارته. ظنّوا أنَّه لن ينجو. مع هذا لم يمت. عندما شُفي، عندما فتح عينيه أخيرًا راقدًا على سرير في بيتٍ لا في مستشفى، لم يفتح فمه. فتح عينيه ونظر إلى الوجوه التي تنظر إليه. سمع الكلمات التي تأتي من بعيد ولم يفهم ماذا يرى ولم يفهم ماذا يسمع. هل سألوه عن اسمه عندئذٍ؟ هل سمع أحدًا يسأله عن اسمه؟ لعلّ أحدًا لم يسأله. كان ابن أربعة أعوام أو خمسة وكان آتيًا من الموت ولم يمت. شُفي فسمّاه أبي مارون».

ـ سمّاه على اسمك؟

ـ أنا مارون. أنا الصبي الذي خطفوه.

«أنا مارون. أنا الصبي الذي خطفوه. ألم أقل لك أنا لست أنا. ألم أقل لك إنَّ حياتي غريبة وأنّني عشت حياتي كلّها أصارع ذاكرتي وذاكرتي تدور حولي وتخدعني مرّتين. المنامات ردّت إليّ صورًا. والذكريات (كأنَّك تتحرّك ساعة المساء في غابة) حيّرتني. ما تتذكّره يقهرك، يضربك بالأرض مرّات، يدوس عليك. يذهب ويختفي ولا يهتمّ بك. يتركك على الأرض وأنت لا تفهم ماذا تذكّرت (من أين أتت هذه الذكرى الغامضة) ولا تفهم كيف تذكّرت. تذكُرُ مثلاً ما قلته لك عن قعدة الطعام، ونحن نأكل الكشك الساخن حول الطاولة وأبي يناول الخبز إلى أخي الكبير... تذكر؟ عندما دخلت الجامعة وسكنت في مبنى الداخلي، عندما صرت بعيدًا عن البيت في الأشرفيّة، بدأت أرى منامات غير مفهومة. كنتُ من قبل أراها، أو أرى مثلها، لكن في تلك الفترة شعرت أنَّ شيئًا يتغيّر فيّ... كيف أصف هذا؟ أفضل أن أحكي بالترتيب. أفضل أن أرجع إلى البداية وأخبرك من البداية إلى الآن.

قوَّصوني على خطّ التماس الذي يقطع بيروت نصفين سنة 1976. وأبي حملني وأخذني إلى بيته. إذا كتبت يومًا حياتي في كتاب يا ربيع أرجو أن تبدأ قصّتي بهذه الجملة: قوّصوني على خطّ

التماس الذي يقطع بيروت نصفين سنة 1976، وأبي حملني وأخذني إلى بيته.

مع أنّه ليس أبي. أعرف ذلك. لكنّه أبي أيضًا. كان رذاذ خفيف يتساقط طوال ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم أُعطيت حياة جديدة. خسرت حياة وربحت حياة أخرى. ربحت؟ والذين قتلوا في السيّارة؟ تظنّ أنّني لا أبالي؟ تظنّ أنّني لم أبحث عن عائلتي عندما عرفت؟ لا تحكم إلاّ بعد أن تسمع قصّتي. مازلت في البداية.

أبي الذي يخطف الناس ويقتلهم منذ قتلوا ابنه الصغير ورموه دامي الجثّة مقطّع الثياب في طلعة المتحف ـ أوتيل ديو (رموا الجثث الصغيرة جنب الطريق، في بورة جنب الطريق، مكان البورة بناية عالية الآن وأسفل البناية مطاعم)، أبي الذي حملني مدمّى من خطّ التماس لم يكن أبي. لكنّه أبي أيضًا. قبل ذلك امتلكت (امتلكت؟) حياة أخرى وأبًا غيره وأمًّا غير أمّي وأخوة غير أخوتي. لم أعش حياة واحدة. كان لي اسم غير الاسم الذي صار اسمي. كان لي اسم غير اسمي. حملني أبي إلى الأشرفيّة وعندما فتحت عينيّ، عندما عرف أنّني لن أموت، سمّاني على اسم الصبي الصغير المعلّقة صورته في صالون البيت، عالية، وفي زاويتها الشريط الأسود. سمّاني على اسم ابنه الذي أُخذ منه: مارون.

المرأة التي ساعدت المختار على تزوير بطاقة ثبوتيّة لي مازالت على قيد الحياة. سأخبرك لاحقًا كيف ذهبت وزرتها في بيتها في الرميل وسأخبرك ماذا قالت. اسمها إيفلين عازار. أعطوني اسم أخي الميت وكتبوا على الهويّة أنّني ابن فيليكس وفيكتورين وكتبوا

أنّني مواليد 29 أيلول (سبتمبر) 1971، وهذا يعني أنّني برج الميزان. (قد يبدو هذا مضحكًا لكنّني بقيت طوال حياتي أظنّني برج الميزان وأهتمّ بهذا البرج وأنا لست مواليد برج الميزان. هوس الأبراج جاء في أخواتي، خصوصًا نجوى). وأنا صغير سألتُ أخواتي كيف أحمل أنا وأخي اسمًا واحدًا؟ قلن إنَّ أمّي نذرت لمار مارون أن تسمّي ولدين «مارون».

هذا ترتيب أخواتي: جوليا الكبرى، ثم تأتي ماريانا ونحن نناديها ماري، ثم نجوى، وفي نهاية العنقود ليليان. نجوى الأقرب إليّ مع أنّها الأبعد مسافة الآن. وهي الأقرب إليّ مع أنَّها عمومًا لا تنظر إلى الأشياء كما أنظر إليها. كلّهنّ هنا إلاَّ نجوى في فرنسا. جوليا عندها أربعة أولاد (إيلي وفيليب وجورجيت وماي)، ماي وُلدت في كندا، هاجروا إلى تورنتو لكنّهم رجعوا الآن ولعلّهم يهاجرون من جديد، لا أعرف. ماري عندها ثلاثة أولاد (كارول وليزا وطوني الصغير). ليليان عندها ابنة واحدة (ناتالي). نجوى لم تتزوّج. عندها صاحب في باريس ومن قبل سكنت مع صاحب آخر لكنّها الآن تسكن وحدها وحتى الآن لم تتزوّج.

في البيت في الأشرفيّة كانت ماري التي تصغر جوليا بسنة واحدة تتصرّف كأنَّها هي الكبرى. جوليا ابتعدت من طريقها لأنَّها تميل إلى الكسل. ماري هي الطبّاخة في عائلتنا، بعد أمّي. أمّي علَّمت البنات كلّهنَّ لكن ماري عندها نَفَس. أبي كان لا يشرب القهوة إلاَّ من يد أمّي أو من يد ماري. كان يقول لجوليا إذا عملت له قهوة. . . لا، ليس أبي، أبي كان لا يقول، إيليّا هو الذي كان

يقول إنَّ هذه ليست قهوة بل ماء أسود، إيليّا كان يقول. أبي كان يشرب قهوة ماري وهو يدخّن سكائره على الشرفة ساعة الصباح. عندما ينتهي يدخل إلى الحمّام. بعد وقت قصير يخرج من البيت. عند رجوعه يصعد إلى خيمة القصب على السطح حيث يربّي الكنارات. نصف النهار يقضيه بين الشرفة والسطح، ينقل أقفاص الكنارات من الشرفة إلى السطح، من السطح إلى الشرفة، بحسب الطقس. هذا بعد الـ 1985. قبل الـ 85 لم يربِّ عصافير.

قبل الـ 85 كان أبي رجلاً آخر. كم مرَّة تغيّر هذا الرجل؟ هل تغيّر؟ في الـ 85 ماتت أمّي. قتلها قلبها الضعيف. دار بها أبي على الدكاترة سنوات. لم يترك مستشفى إلاَّ أخذها إليه. وإيليّا أرادها أن تسافر إلى أوروبا كي تتلقّى العلاج هناك. لم تقبل أن تسافر. الدكاترة هنا قالوا لها إنَّ العلاج غير ممكن. عضلة قلبها ضعيفة، لن تتحمّل عمليّة ولا علاجًا. العضلة تضاءلت، ضمرت، صارت مثل عضلة طفل صغير في جسم كبير. لا أذكر أمّي من دون علب الأدوية على سطح الكومودينة جنب التخت، وفي جارور الكومودينة الفوقاني، وفي صندوق الكومودينة الصغيرة تحت الجارور. علب أدوية لا تعدّ، وأوراق مطويّة يُخرجونها من العلب ونجوى تقرأ عليها الآثار الجانبيّة وجوليا تسأل عن هذه المادّة الكيماويّة وتلك وماري تقف في باب الغرفة والفوطة المبلولة بين يديها وكمّاها مرفوعان إلى فوق الكوعين وقطرة عرق تسيل فوق حاجبها. لا أذكر أمّي إلاَّ بين أخواتي، مطروحة على التخت أو الكنبة، تبلع الحبوب وتقول «يا عذراء».

مع أنَّها قبل أن يسوء وضعها الصحّي كانت نشيطة. تطبخ

وتمسح وتكنس وتطارد أبي حتى يقبل بأخذنا إلى الجبل. أقرب نزهة إلى قلبها النزهة إلى مار شربل. لم تحبل بصبي (هذا إيليّا) إلاّ بعد أن نذرت لمار شربل. تحبّه وصورته في إطار على الكومودينة جنب السرير. أذكرها تمسح أيقونة العذراء بالزيت وأذكرها تشعل الشمعة وتستدير بوجهها إلى وجهي الذي ينظر إليها ويخاف أن تحرق أصابعها بالكبريت (دائمًا تبدو مخدّرة، دائمًا تبدو نصف نائمة حين أتذكّرها الآن). ترفع يدًا بيضاء طويلة الأصابع، هزيلة الرسغ، كأنَّ الأصابع الطويلة ثقيلة على المعصم، كأنَّ المعصم لا يقدر أن يتحمّل ثقل هذه الأصابع الطويلة العظم... لا أنسى كيف ترفع يدها وتطلبني إليها، ولا أنسى كيف أسرع وأجثو جنبها على صوف الخروف. تضمّني وأغيب في جسمها الحارّ وتلفظ اسمي مرّة تلو مرّة وهي تحضن رأسي وتشمّ شعري وتقول كلمات لا أسمعها جيّدًا لأنَّ أذني مضغوطة تحت ذراعها وأذني الأخرى مكبوسة على صدرها، لا أعرف ماذا تقول، وأقول إنَّها تصلّي أن يحفظني الربّ.

إيليّا يخاف عليها وهي تخاف عليّ. تعلّمتُ أوّلاً في مدرسة الناصرة ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى، وفي المدرستين لم أكن بعيدًا من خطّ التماس. كانت المدرسة تفتح إذا راقت الأوضاع وتقفل إذا عادت الاشتباكات والقصف. لكن مرّات تكون فاتحة ونحن في الصفوف ويبدأ القصف. يجمعونا في الطابق التحتاني المعتم بسبب أكياس الرمل على الشبابيك. في هذه الأوقات تنقطع الكهرباء والموتور الاحتياطي يتعطّل ولا يبقى للأساتذة والمعلّمات إلاَّ أن يشعلوا القدّاحات وعيدان الكبريت. في فترة لاحقة وضعوا في

الطابق التحتاني مصابيح كاز (لوكسات) ووضعوا لمبات نيون تعمل على البطاريّة. لكنّني أذكر مرّة من تلك المرّات الأولى، هذه لا أدري أيّ سنة بالضبط، أذكر الوجوه الخائفة وأذكر بناتًا كثيرات في «المريول» الأزرق وأذكر وجهًا ينظر إليّ من بين الوجوه: اسمها هيلدا، اسمها الحقيقي غير مهمّ، إذا أردت أن تكتب اسمًا قلْ إنَّها تُدعى هيلدا صفَيْر. كانت تعرفني، تأتي معي في البوسطة إلى المدرسة، كانت من الحيّ. كنّا أطفالاً، وأخذتنا الحياة في دوائر، والتقينا من جديد. أحببتها وأردت أن أتزوّجها، هل أردت أن أتزوّجها حقًّا؟ أظنّ ذلك. سأخبرك لاحقًا ما جرى وماذا قال أبوها حين ذهبت إليه.

التقينا من جديد وأنا أوشك على الانتهاء من المدرسة وأتحضّر لامتحانات الدخول إلى الجامعة. هي تركت المدرسة إلى مدرسة أخرى قبل سنوات وأنا كنت عندما ألتقيها على الطريق ـ أمام محطّة البنزين، أو قريبًا من مفرق الحديقة، أو أمام مطعم الفول الذي تحوّل بعد سنوات فرنًا للمناقيش ـ كنت أبادلها التحيّة المهذّبة ولا أفكّر فيها كثيرًا ولا أتذكّر شيئًا من الأيّام القديمة. . . لكن بعد ذلك، عندما صرت أخرج معها ونذهب إلى السينما أو إلى المطعم أو إلى الحديقة (جنينة السيوفي) أو إلى الكسليك، عندما بدأ التقارب خرجت من أعماقي تلك الذكريات وصرت أحكي أشياء وأسألها هل تذكرها. تتذكّر أشياء ولا تتذكّر أشياء. حكاية الملجأ، كيف رأيتها تنظر إليّ في ملجأ المدرسة، تذكّرتها. ضحكت وقالت إنَّها كانت تنظر إلى الجميع وليس إليّ أنا فقط. هذا غير مهمّ. المهمّ تذكّرتْ. لكن هناك تفاصيل أخرى كنت أعود إليها وهي لا

تتذكّرها. ليست أشياء مهمّة. ليست أشياء على علاقة مباشرة بها أو بي، لا، ليس ذلك ما أعنيه. كنت مثلاً أسألها هل تتذكّر الأستاذ الفلاني، مدرّس الرياضيّات الذي كان يأتي إلى المدرسة بالصندل واسمه كذا وعنده سيّارة ماركتها كذا فلا تتذكّره أبدًا. أنا وجدت هذا غريبًا. أخبرها عنه أكثر ـ أو حتى من دون أن أخبرها أكثر ـ وتتذكّره. ربما لا تتذكّره في الجلسة ذاتها. لكن في لقاء آخر تقول لي: تذكر ذلك الأستاذ الذي حكيت لي عنه، تذكّرته، قبل يومين تذكّرته. أو تقول لي: تذكر ذلك الجلّ الذي أخبرتني عنه، جلّ الموز في طرف المدرسة حيث كانوا يرمون الكراسي المحطّمة، تذكّرته هذا الصباح، هكذا فجأة وأنا أضع الأغراض في حقيبتي تذكّرته.

اسألني ما علاقة هذا كلّه بالقصّة التي أرويها؟ أردت أن أقول لك شيئًا عن التذكّر. الذكريات محيّرة. أنا حين أتذكّر أشياء قديمة هل أتذكّر أشياء حقيقيّة؟ أنت، أنت هل تظنّ أنَّ الذكريات حقيقيّة؟ تتذكّر أشياء حدثت قديمًا، لكنَّها الآن غير موجودة، صحيح؟ قلْ إنَّك تتذكّر مثلاً غرفة في بيت أهلك. غرفة طالما تمدّدت على كنبة فيها ناظرًا من النافذة المفتوحة إلى قطعة من السماء في الخارج أو إلى شرفة بناية مواجهة أو إلى شجرة. هذه الذكرى إلى أيّ حدّ هي حقيقيّة؟ ربما ذلك البيت لم يعد موجودًا، ربما الشارع كلّه تغيّر. لا؟ البنايات لا تبقى، الأشجار تيبس، وكل هذا... لا؟ الذكريات محيّرة. الأشياء كانت من قبل موجودة لكن أين هي الآن؟ أنا أفكّر كثيرًا في هذه الأشياء. وأفكّر: هل يستطيع الواحد أن يرجع إلى هناك؟

أمّي رأتني ألعب بالكرة أمام البيت فصارت تبكي. ثم منعتني من لعب الفوتبول. لم أفهم لماذا تمنعني. إيليّا أخذني وقال لي إنّه هو أيضًا كان يحبّ الفوتبول كثيرًا لكن لأنّ أمّي لا تريده أن يلعب هذه اللعبة لم يعد يلعبها. وطلب منّي أن أفعل مثله، من أجل أمّي. أردت أن أعرف السبب. لم يقل. في وقت لاحق، ومن أجل إقناعي، قالت جوليا شيئًا غامضًا على علاقة بأخي الصغير. لم أفهم بالضبط ماذا تخبرني. كلّما اقترب الكلام من أخي الميت صارت الأشياء غامضة. الجمل تموت في نصفها ولا يكملن كلامهنّ. كلّهن هكذا. حتى نجوى تتجنّب ـ كانت تتجنّب ـ هذا الحديث. لكنّني من الإشارات المتفرّقة والكلمات القليلة ركّبت هذه القصّة في رأسي: أخي الميت كان مثلي يحبّ الفوتبول. بسبب الفوتبول كان يخرج كثيرًا من البيت. في إحدى المرّات خطفوه.

صرت لا ألعب الفوتبول أمام البيت ولا في الحيّ كلّه ولا حتى في الجنينة. كانت هناك فترة لعبنا فيها بالكرة في محطّة القطارات المهجورة تحت الجنينة. لكن ماري رأتني مرّة ـ رأتني من بعيد وعرفتني من شعري الأشقر وقميصي، هي قالت إنّها عرفتني من شعري وأنا لم أصدّقها تمامًا، ماري كانت هكذا، تقول أطرف الأشياء وتضحك عليّ وأنا أصدّق؛ لكن في تلك المرّة لم أصدّقها. عرفتُ كيف عرفتْ: بسبب جواربي. الرمل الأحمر الذي دبغ جواربي. حاولتُ كثيرًا ألاّ يعرفوا. كنت لا أعود إلى البيت إلاّ بعد أن أغسل وجهي ويدي وحتى رأسي على حنفيّة المحطّة. وإذا رأتني جوليا منبوشًا أحمر الوجه عند دخولي أقول كنّا نركض، كنّا

نركض أو كنّا نلعب غمّيضة ولم نكن في الملعب. تقول لي لست في الحضانة كي تلعب غمّيضة، هل تكذب عليّ، هل تريد أن تزعل أمّك، هل تريد. . . يرتفع صوتها درجة واحدة فأخشى أن تسمعنا أمّي في غرفتها. أحلف لها أنّني لا ألعب الفوتبول، أحلف بيسوع المسيح وأحلف بأمّنا مريم ولا أخاف.

أحلف ولا أخاف أن أذهب إلى جهنّم (ماذا تكون هذه؟). أحلف ولا أخاف أن يحرقني إبليس (لماذا يحرقني؟ لأنّني ألعب الفوتبول مع أصحابي؟). لا أخاف من هذه الأكاذيب الصغيرة (أنا أكذب من أجل أمّي، أكذب لئلاّ تزعل) لكنّني أخاف من أشياء أخرى. وبعد أن تكاثرت القصص التي أسمعها صرت أخاف أكثر.

في المدرسة كانوا يخبرون قصصًا. هناك ملعب في المدرسة لا نلعب فيه. المدرسة مستورة عن الجانب الآخر (مستورة عن «الغربيّة») بصفّ من البنايات. لكنّ الملعب المذكور مكشوف في طرفه على رصاص القنّاصة. كانوا مرّة يلعبون هناك ـ ليس ملعب فوتبول، ملعب صغير جدًّا، أرضه باطون، وفي زاويته شجرة زيتون عجوز، مقوّرة الجذع وعندما تدور الشمس وتبتعد الظلال نرى هرّة بيضاء تنام في تجويف الشجرة ـ الأولاد كانوا يلعبون هناك (هذا حدث قبل أن أنتقل إلى هذه المدرسة) عندما وقع أحدهم على الأرض. ماذا كانوا يلعبون؟ كانوا يلعبون «القّيطة»، الواحد يركض وراء الباقين كي يلقطهم، وعندما يلقطك ـ مهمّ ألاّ يمزّق قميصك ـ يصير دورك: الآن عليك أنت أن تطارد الآخرين. أو لعلّهم كانوا يقفزون على الحبل. هل يهمّ ماذا كانوا يلعبون؟ كان الملعب

مملوءًا بالأولاد (هذه فرصة العاشرة) يأكلون سندويشات من البيت ويشربون المرطّبات ويتدافعون ويتبادلون الأخبار والنكت ويضجّون. ضجّة فظيعة وضحك وفي قلب هذا كلّه وقع ولد على الأرض. لم يدفعه أحد لكنّه وقع.

في المدرسة كانوا يخبرون قصصًا. ويدلّونك إلى البقعة السوداء على الأرض الباطون في الملعب المشبّك الممنوع علينا أن ندخله (له بوّابة وعلى البوّابة قفل بسلاسل). إذا طارت الطابة فوق الشبك الحديد العالي الذي يُسوّر الملعب، إذا وقعت الطابة هناك ـ في الملعب الممنوع ـ ضاعت. لا أحد يجرؤ أن يتسلّق الشبك كي يأتي بالطابة: نخاف من رصاص القنّاصة ونخاف أكثر من العقاب. أن يرانا الناظر أو ترانا الإدارة.

الآن وأنا أتذكّر ذلك أرى طابات مثقوبة على الباطون، وراء الشبك. هذه ذكرى حقيقيّة أم أنا أتخيّلها؟ وأرى طابة غير مثقوبة، لم يصبها رصاص القنّاص، مازالت سليمة. لكن أحدًا لا يتسلّق الشبك ولا يقفز كي يجلب الطابة. نعرف أنّ القنّاص ينتظر. نعرف أنّه تركها فخًّا.

وأفظع ما كنّا نسمعه قصص الخطف. القصف أسهل من الخطف. القصف واضح: القنابل تقع، تجرح أو تقتل. كنّا نجمع الشظايا الباردة عن الطريق (متري ابن جورج تيّان كان يوضّبها في مرطبان زجاج ويبيعها لواحد عنده دكّان على التباريس). لم نكن نخاف ونحن نلمّ الشظايا ونقول هذه من قذيفة 106 وهذه من قذيفة 105. القصف لم يكن مجهولاً. لكن الخطف: ماذا يفعلون بالذين

يخطفونهم؟ أنا كنت أعرف أشياء لا يعرفها غيري. أنا الذي ألبس ثيابه كل صباح في الصالون تحت الصورة المعلّقة للأخ الميت، أعرف. كنت أنام في الصالون، أنا وليليان ونجوى. نفرش بين الكنبات وننام. في فترة أخرى صرنا كلّنا ننام في الصالون. بحسب الأوضاع.

كنت أعرف أشياء لكن ليس تمامًا. ماذا يحدث مثلاً لهؤلاء الذين يُخطفون ولا تظهر جثثهم؟ هؤلاء، أين هم؟ من يحبسهم؟ أين بالضبط يحبسونهم؟ ماذا يفعلون بهم؟ كل ذلك كان أسود، غامضًا، ومحرِّكًا للكوابيس.

جسمي يكبر والثياب تضيق عليّ فتُخرج جوليا أو ماري ثيابًا من الخزانة: ثيابًا لم أرها من قبل. خزائن كثيرة (خزانة في غرفة أمّي، خزانة في غرفة القعود التي نسمِّيها غرفة القعود ونسمِّيها غرفة الشتاء مع أنّنا نادرًا ما نقعد فيها لأنّها مكشوفة على جهة القصف وعلى الخلاء؛ خزانة على الدرج الصاعد إلى السطح؛ وخزانة في الغرفة التي نسمِّيها غرفة جوليا. ليست خزانة حقيقيّة: صناديق كثيرة طلاها إيليا بالأبيض ورصفها الصندوق فوق الصندوق وماري خاطت لها ستارة من القماش الأبيض وطرزت على زوايا الستارة ورق عنب أخضر). في أعماق الخزائن ثياب وجوارب محشوة خزامى لطرد العثّ وأوراق يابسة من نباتات عطرية فوّاحة الرائحة. أذكر تلك الثياب وكيف تخرجها اليد متمهلّة ثم تنفضها. مرة رأيت جوليا تشمّ قميصًا ووجهها يحزن حزنًا لا يصدّق.

تغسل ماري الثياب وتكويها. أجرّبها وأقول هذه كمّها طويل

فتقول نقصُّ الكمّ ونطويه ونضع زرًا وعروة، سهلة. أجرّب بنطلونًا وأجده واسعًا. تضحك ماري وتقول أنت جلد على عظم، كل السندويشات التي تبلعها وما زلت جلدًا على عظم، ثمّ تقول لنا أنّك لا تلعب الفوتبول عندما نبرم ظهرنا! تكون تضحك وتمازحني وتقرصني لكنّها تكفّ عن الضحك عندما تجلب حزامًا من أحزمة إيليّا وتشدّ الحزام وتشدّ البنطلون عليّ وترى أنّه لن ينفع لأنّ الثقوب فيه لا تكفي، لأنّني جلد على عظم حقًّا!

تعبس في وجهي وتقول أين تعلّمت أن تكذب هكذا؟ وأحلف لها مرة أخرى أنّني لا ألعب الفوتبول لكنّ وجهها يقول لي إنّها لم تصدّق. تلمس عضلات ساقي وتقول هذه الحجارة هنا لا تقول ما يقوله لسانك. أقول أنا أركض، أنا أحبّ الركض، كلّنا نركض. وأضرب قدمي بالأرض وأبعد يديها عنّي وأقول: ممنوع الركض؟

الآن وأنا أذكر تلك المشاحنات أفكر أنّها هي أيضًا كانت أمّي. ماري. أذكر في الـ 82، عندما كانت الطائرات تقصف «الغربيّة» وأبناء الجيران يطلعون إلى سطوح البنايات ويقولون هذه أصابت الحمرا وهذه أصابت الكولا وهذه على المزرعة، أصابتني «الحصبة». امتلأ وجهي بالنقط الحمراء والطبيب منع الاقتراب منّي: نبّه على أخواتي وقال هذا النوع من الحصبة يصيب الكبار أيضًا. كانت «حصبة» أم «جدري»؟ كانت نقطًا حمراء أم سوداء ــ بنيّة؟ أنا أصبت بالإثنتين. مرة بالحصبة ومرة بالجدري. تقدر أن تقول إنّني خزان أمراض. وكنت أيضًا «أترعف» أحيانًا، أنزف من أنفي. لكن ليس كثيرًا. إذا لعبت طويلاً في الشمس كنت

«أترعف». ومرة كنت «أترعف» وجلست على حافة الرصيف أمام دكان موسى زيّات (الذي يبيعنا البوظة العربيّة ويقول إنّها أفخم بوظة في الأشرفيّة وهي ماء وجليد وتلوين ومرّات يتكسر الجليد بين أسنانك) وجاء وأعطاني كلينكس وقال إكبسْ جيّدًا على أنفك، فوق فوق على العظمة، ومدّ يده بكفّها الصغيرة مثل كفّ البنت بأصابعها القصيرة (كانت يدًا لينة، رطبة، تثير القشعريرة) وعلّمني كيف أكبس فوق، بين العينين، حتّى يتوقف النزيف، وقال ارفعْ اليد الأخرى، ارفعها عاليًا، وقال الآن تنتظر قليلاً ويتوقّف الدم. وأنا سألته ماذا يحدث إذا لم يتوقّف نزول الدم، وهو قال إذا لم يتوقّف نزول الدم «بتموت». أذكر كلمته: «بتموت». قال إذا لم يتوقف النزيف فسوف أموت. بعد سنوات طويلة، أثناء حرب الإلغاء (1990)، أصابته رشقة رصاص في كبده.

وأنا مريض سنة الـ 82 كان السرير يهتز تحتي عندما تطير الطائرات الحربيّة فوق بيتنا. أمّي وماري تهتمان بي. إذا كانت أمّي نائمة (أخذت الدواء) تعتني بي ماري. وعندما يجيء أبي أو إيليّا إلى البيت (من «المحور» أو من المرفأ أو من بيت الكتائب المركزي) يقتربان من فراشي. إيليّا لا يخاف من الحصبة لأنّه عرفها وهو صغير وصارت عنده مناعة. يقترب ويضع باطن يده على جبهتي ويقول إنّني أحرق ويبتسم. أبي يسأل أختي متى قاست حرارتي. الميزان على الطاولة جنب السرير، وتمدّ ماري يدها وتلمس الميزان وهي تقول قبل لحظة، أو قبل ربع ساعة، أو قبل نصف ساعة. اسألني كيف أتذكر كل هذه التفاصيل كأنّ ذلك جرى أمس وليس قبل 26 سنة؟

لا أنسى زعيق الطائرات الحربيّة. وكنت مرة أهوي برأسي الثقيل إلى الجهة الأخرى من المخدة (الحكاك فظيع، وربطوا يديّ لئلاّ أجرح وجهي) ورأيت الطائرة وراء زجاج النافذة، ورأيت خيال الطائرة، والشمس تلمع على المعدن، تلمع على الفضة البارقة. والصوت! الهدير المرعب! هل قلت لك إنّني كنت أخاف من الخطف فقط، من المجهول؟ هل قلت إنّ القصف لا يُخيف وهدير الطائرات لا يُخيف؟ هذا غير صحيح. كنت أخاف من أشياء كثيرة. كيف لا أخاف وأنا صغير وأمّي نائمة طوال الوقت، مخدرة، وأبي لا يقعد في البيت وأخي الكبير لا يقعد في البيت، وأسمع ليليان في الحمام تبكي، كلّما سمعتْ قصفًا تركض إلى الحمام وترد باب الحمام، تقفله وتبكي... عندما أفكّر في ليليان أفكّر أنّها عاشت 15 سنة في الحمّام. حرام ليليان. حتى بينما يقصفون «الغربيّة»، تسمع الانفجارات وتظنّ أنهم يقصفون «الشرقيّة» (ليست بعيدة، بيننا فقط خط تماس، ليست بعيدة) وتركض إلى الحمّام. الآن عندما أنظر إلى ابنتها (هل قلت لك اسمها؟ اسمها ناتالي) أفكّر أنّني أنظر من جديد إلى ليليان. مع فارق وحيد: هذه الصغيرة لا تبدو خائفة طوال الوقت.

لماذا يخاف أحدنا وآخر لا يخاف؟ إيليّا ترك البيت أثناء «حرب الجبل» (1983). كنّا نعرف أنّه يقاتل متنقّلاً مع رفاقه بين الشوف والمتن وكنّا لا نقول لأمّي. إذا سألتنا نقول الآن خرج كي يشتري خبزًا. تنام وعندما تستيقظ (لا تستيقظ تمامًا، عيناها تزوغان كأنّ غيمًا يسبح في هذين العينين) وتسأل هل رجع إيليّا من السوق وهل وجد خبزًا، نقول إنّه رجع ونقول «كلي هذه اللّقمة» ونقول « هذا

الخبز الطازج الآن الآن اشتراه إيليّا». تسألنا أين هو؟ نقول عنده حراسة على ساحة ساسين أو ذهب يسهر عند رفاقه أو نزل إلى أبي في المرفأ. تسألنا لماذا لم نوقظها؟ نقول جلس قربك على السرير وانتظركِ حتى تستيقظي. تأخذ أمّي لقمة اللبنة من يد أختي وتقول إنّها شعرت به، أحسّت بيده على رأسها.

إيليّا كان لا يخاف؟ أخبرني حكايات لا تُعد عن «حرب الجبل». شيء غريب كان يطرأ على وجهه وهو يتكلّم: أشعر أنّه يفحصني. أشعر أنّه يريدني أن أقول شيئًا. لكن ماذا؟ وكان يرجوني ألاّ أنقل أحاديثه إلى العائلة. هذا بيننا، يقول. ولا أفهم ماذا يعني بالضبط. أفهم نصف ما يعنيه، أظن أنّني أفهم. فيما بعد سأتذكر تلك الجلسات على السطح، تحت خيمة القصب، وأفكّر أنّه كان يعني شيئًا آخر تمامًا.

في تلك الفترة تعلّقت به. قبل ذلك ـ وأنا أراه يرعى أمّي ـ كنت بدأت أحبّه. أنا أصلاً كنت أحبّه. هو أخي الكبير فكيف لا أحبّه؟ أذكره مرة يضرب ولدًا دفعني على الطريق. هذا حدث في وقت مبكر، قبل «حرب المئة يوم» أو بعدها لا أذكر. لكن في وقت مبكر. قبل سنة 1979؟ في البيت كان يعاديني. يعاديني سرًّا، من وراء ظهر أبي وأمّي. أمام أخواتي قد يدفعني في صدري. لكن ليس أمام أبي وليس أمام أمّي. ظلّ طوال تلك السنوات الأولى يعاديني. مزاجه يتقلّب، لحظة ملاك ولحظة شيطان. لكن عمومًا: يعاديني. لهذا أذكر ما حدث جيّدًا. كانت المرة الأولى التي أفكر فيها أنّه يحبّني. هل تصدّق؟ سنوات وأنا أقول هذا أخي الكبير

وبالتأكيد يحبّني كما أحبّه، سنوات أقول هذا وأنا غير متأكّد، حتى رأيته يضرب ذلك الفتى. كنّا نلعب في الطريق. إيليّا كان خارجًا من الدكان ورأى الفتى يدفعني ثم يرميني على الأرض ويركلني. كنت أسقط على الزفت ورأيت بطرف عيني إيليّا وهو يقترب بخطى واسعة وفي يده كيس الورق. أذكر كيس الورق الأسمر الخشن، هل تصدّق؟ كنّا نشتري الخضر في أكياس الورق حتى ذلك الوقت، لم تكن أكياس النايلون شائعة. أعطى الكيس لأحد الأولاد كي يحمله واقترب من الصبي الذي يضربني وهو يقول شيئًا. أنا كنت على الأرض. سمعته يلفظ اسم الصبي وسمعته يشتمه. أذكر الشتيمة. وأذكر صرخات الصبي. مزق قميصه وضربه حتى سال الدم من وجهه. أذكر الصبي يزعق ويقول «سنّي». هذه ذكرى حقيقيّة؟ أعرف أنّ هذا كلّه حدث، ومع هذا ـ بعد كل هذا الوقت، بعد كل ما اكتشفته وعرفته ـ أرتاب أحيانًا في ذكرياتي. لكنّني أذكره (أذكر إيليّا) يرفعني عن الأرض وينفض التراب عن ثيابي ويمسح أنفي بكمّه ثم ينظر إلى وجهي المخضوض ويقول «لا تلعب معهم إذا كنت ستبكي».

لكن هذا كان نادر الحدوث: أن يضربني أحد. كنت محبوبًا في الحيّ. بردويل ـ هذا قريب الطبيب الذي داواني والذي يداوي أمّي ـ صاحب مطعم الفول يناديني مرّات وأنا أعبر أمام المحل ويقول «تعال» ويضع لي صحن الفول على الطاولة. ولا يأخذ مالاً. أذكر المرة الأولى التي ناداني فيها: كنت أُكرّج دولابًا مطّاطًا (دولاب سيّارة) على الرصيف وأوجهه بعصا وكان الدولاب يظلّ يقع على جنبه. أرفعه ويقع، وكلّما مشيت خطوة وهو يكرج أمامي وقع مرة

أخرى. سمعت ضحكًا والتفت ورأيت الرجل واقفًا في باب مطعمه الضيّق وهو يمسح يديه على إزاره الأبيض. كان يضحك لي وعندما نظرت إلى داخل المطعم (كان فارغًا) ثم إليه مرة أخرى أشار إليّ أن أقترب:

ـ أنت ابن فيليكس، صحيح؟

قال لي أن أترك الدولاب في المدخل وأن أضع العصا جنب الدولاب. كان يتكلّم ويضحك ودلّني إلى المغسلة في عمق المكان وقال اغسلْ يديك وسألني عن اسمي. قلت «مارون». قال «تحبّ الفول يا مارون؟». قلت أحبّ الفول الذي تعمله أمّي وأحبّ الفول الذي تعمله أختي ماري، لكن أختي جوليا تقول أنّ الفول في المطاعم يكون حتّى أطيب. دفع الباب الصغير بيده ودخل وراء المنضدة الحجر التي تتراصف عليها أوعية غريبة الشكل وصار واقفًا تحت الرف الذي تتكاثر عليه أوعية الكبيس التي أراها وأنا أعبر خارج الدكان: اللفت الأحمر والباذنجان الأسود والخيار الأزرق والبندورة الخضراء المخللة. كنت أنظر إلى مرطبان اللفت وأعجب ماذا يكون: كان لونه يسحرني.

أكلت الفول وهو قاعد على الطاولة قبالتي يدخن سيجارته وينظر إلى الطريق الخالية وإلى الشمس على الطريق. سألني هل أحببت الفول؟ قلت هذا ليس فولاً، أختي تعمل لي الفول دائمًا، هذا فول؟ أذكر ضحكته وأنا أحكي. كان يحبّ كيف أحكي. قال لي لا تقلّ هذا الحكي لأختك لكن فول البيت ليس فولاً. هذا أسلقه على النار الخفيفة طوال الليل وعندما أتبّله وأدمّسه أضع فيه أشياء

لا يعرفها غيري، هذه خلطتي السرّية، ولا يعرف الخلطة إلاّ الفوّال، وكل فوّال عنده خلطة، وعندما يصير الفوّال عجوزًا ينادي أكبر أولاده ويقول له السرّ.

سألته هل أخبر أكبر أولاده السرّ؟ قال إنّه لم يصبح عجوزًا إلى هذا الحدّ. سألته هل سيخبر أكبر أولاده السرّ عندما يصبح عجوزًا؟ قال إنّه سيجرّب ذلك لكنّ أولاده في أميركا وأميركا بعيدة وسألني هل أعرف أين هي أميركا؟ قلت له إنّني أتعلّم في مدرسة القلبين الأقدسين وأنّنا ندرس الجغرافيا والتاريخ وقلت عندنا في الصف خريطة كبيرة معلّقة وقلت أعرف أين هي أميركا، «أميركا جنب باب الصف». هذه الجملة صارت بعد ذلك جملة شائعة في بيتنا. لا أعرف كيف وصل كلامي إلى البيت لكنّ ماري عرفت أنّني ذقت فول بردويل المدمس وصرت كلّما طلبت منها ترويقة فول تقطب جبينها وتقول اذهبْ عند صاحبك يعمل لك، أنا لا أعرف كيف. (بعد سنوات، عندما سافرت نجوى بطريق قبرص إلى فرنسا وذهبنا لتوديعها في جونيه نهَرَ إيليّا ماري الدامعة العين وقال أختكِ ليست ذاهبة إلى أميركا، فرنسا قبل باب الصف).

أحببت الفوّال صاحب المطعم جنب بيت المختار وكنت أناديه «عمّي». وكلّما مررت جنب المطعم وكان المطعم فارغًا يناديني كي أدخل. يملأ لي قصعة الفخار. أرى المغرفة المعدن البيضاء تنزل في الطنجرة العميقة ثم تخرج مملوءة بالحبوب. البخار يتصاعد. غيمة من البخار تتصاعد ما أن يبعد الغطاء عن الطنجرة التي تغلي طوال الوقت على النار. أنظر عبر الزجاج، أقف على رؤوس

أصابعي وأجرب أن أكتشف ماذا يضع في الجرن الصغير الحجر الذي يدقّ فيه الثوم. وهو يضحك ولا يدعني أكتشف السرّ. حتى اليوم لا أشمّ رائحة الليمون «بو صفير» إلاّ وأتذكّر ذلك المكان: أغطية الطاولات بالمربعات البيضاء والحمراء، الخشب على الحيطان، مرطبان اللفت، باقات البقدونس والنعناع في قناني البلاستيك، ورائحة الرجل السبعيني الذي يضع صحن الفول أمامي مغمورًا بزيت الزيتون. رائحة الليمون بو صفير ورائحة الكمون.

لم يكن يضايقني بأسئلته مع أنّها كانت غريبة. يسألني مثلاً هل أحبّ أمّي؟ أو يسألني من أحبّ أكثر: أمّي أم أبي؟ لم تكن الأسئلة ذاتها غريبة. بل صوته. يتغيّر شيء في صوته عندما يقول هذه الكلمات. لا تتغيّر نبرة الصوت، لا، ليس هذا، لا أعرف كيف أشرح لك. الكلمات لا تشرح ما يقوله الواحد، ما يشعر به. كنت أنتبه إلى ضوء غريب في عينيه عندما يسألني تلك الأسئلة. كأنّه يركّز قوّة نظرته على نقطة محدّدة في وجهي، كأنّه يريد أن يخترقني بتلك النظرة وأن يكشف السرّ الذي أخفيه. لكن ما هو السرّ؟

إيليّا كان يفعل مثله أحيانًا. أثناء «حرب المئة يوم»، والقصف العنيف يحجزنا في الصالون ليلاً نهارًا، كنت أراه يحدّق إليّ بتلك النظرة الغريبة: كأنّه يريد أن يرى أعماقي. لا، ليس أعماقي، لا أدري كيف أقول ما أريد أن أقول. كأنّه يريد أن يرى شيئًا لا يقدر أن يراه. كأنّني أخفي بجسمي جسمًا آخر وراء جسمي. أنا لم أفكّر في هذه الأشياء في ذلك الوقت. لكن لعلّني بدأت أشعر بها (أشعر؟ أفكّر؟) منذ ذلك الحين. صعب الآن أن أفصل بين ما

أتذكّره وما أتخيّل أنّني أتذكّره. كل شيء يمتزج بكل شيء مع مرور الوقت. كنت أراه متوتّرًا، مملوءًا بالطاقة، كأنّه سيكسر الحيطان. أبي منعه من الخروج. أبي خارج البيت طوال الوقت. وأخي ممنوع من الخروج. مع أنّ أحدًا لا يقدر أن يمنعه. أخي لا يسدّ الباب، ليس ضخم الجثّة، ليس طويل القامة، مازال حتى الآن قصير القامة، أنا الآن أطول منه، ليس طويلاً لكنّه بقوّة ثور. لا أذكره إلاّ جلفًا يخيف الغرباء. قصير القامة لكنّه عنيف. حتى اليوم، وهو كما يُسمّي نفسه «رجل أعمال»، حتى اليوم في حركته عنف مستتر. قصير ومثل أستاذ الرياضيّات الذي ذكرته لك لا يلبس إلاّ الصندل. رجل أعمال في صندل. عنده ثلاثة مطاعم. مطعم في سدّ البوشريّة. مطعم في وسط بيروت تعطّل في الفترة الأخيرة. ومطعم في الأشرفيّة، غير بعيد من بيتنا القديم. طوال الوقت واقف، ولهذا لا ينتعل إلاّ الصندل. لكن صنادله ثمينة. هو يضحك عندما يتكلّم عن صنادله. عدد لا يحصى من الصنادل. يقف في باب المطعم، يدخّن السيجار الكوبي ويشرف على العمل. قصير، طوال الوقت يلبس جاكيتة جينز زرقاء اللون وبنطلونًا أسود. تحت الجاكيتة قميص كاكي اللون، وإذا جاء الصيف يلقي الجاكيتة على كتفه. مازال كما كان: يفور بالطاقة. لا ينام أكثر من خمس ساعات. يبقى في المطعم حتى رفع الكراسي على الطاولات. ويصل إلى المطعم قبل العمّال، في الصباح الباكر، ويشرف على شطف البلاط. في «حرب المئة يوم» كان ينظر إليّ، ثم ينظر إلى الصورة المعلّقة على الحائط وفي زاويتها الشريط الأسود، ثم ينظر إلى أمّي التي تنظر إليه: تعرف أنّه يبقى هنا من أجلها فقط وتحزن

لأنّه غاضب هكذا ولا تعرف ماذا تقول. مرّة كان يصلح باب الصالون، مفصل الباب. هذا الباب يُفضي إلى الممرّ وعندما نُحرّكه يُصدر صريرًا فظيعًا. أختي ماري زيّتته، نفع الزيت يومين، ثم عاد الصرير. قال إيليّا «نُغيّره». جلب صندوق العدّة وفكّ الباب. كان ينتزع المفصل القديم من مكانه عندما اشتدّ القصف وصارت القنابل تقع وراء البيت، إلى جهة الكنيسة. توقّف عن العمل وصار ينظر إلى أختي ليليان. كانت تخاف من نظرته إذا عضّ بأسنانه على شفته السفلى. تخاف منه وتخفي وجهها لئلاّ يرفع صوته. مع أنّه عمومًا لا يرفع صوته أمام أمّي. هدأ القصف ـ لم يهدأ لكنّه ابتعد قليلاً ـ فرجع إلى المفصل القديم، يحاول انتزاعه من الباب. في لحظة ما كفّ عن المحاولة. رأيت السائل الأحمر على يده. وقف وهو يحمل الباب القديم وخبطه على الجدار وكسره قطعتين.

أذكر عندما كان يأتي إلى المدرسة ليأخذني إذا بدأ القصف. يأتي بالجيب المكشوف ويدخل بالجيب إلى قلب المدرسة. لا أحد يقدر أن يمنعه. يأخذ منّي الحقيبة الثقيلة ويقول «بسرعة، بسرعة». وفي لحظة نصل إلى البيت. أذكر العجلات تصفر على الإسفلت، وأنا أسمع الدويّ والرصاص والصراخ.

في إحدى المرّات رأيت رجلاً على الرصيف يزحف ويرفع يده ويرفع وجهه وينظر إلينا نمرّ بالجيب المكشوف ولا نتوقّف. أذكر الدم على وجهه وأذكر الوسخ المنتشر على الحيطان. لم يكن وسخًا.

هذه الذكرى تمتزج بذكرى أخرى: نحن في الملجأ ـ ليس في الصالون، لكن في ملجأ بناية قريبة من بيتنا، هذا الملجأ تحت الأرض، كان مخزنًا، والآن صار جزءًا من سوبرماركت ـ نحن في الملجأ والكهرباء مقطوعة والنيون يطنّ. النيون يطنّ وأحدهم يأتي من الخارج وينزع عنه معطفًا وينفض المعطف. رائحة المطر والبارود تدخل معه وأسمعه يقول إنّ بردويل الفوّال غطّت قطعه الشجرة أمام الدكان. لا أذكر الكلمات بالضبط. في العاميّة نقول «شقف» ولا نقول «قطع». قال إنّ «شقفه على الشجرة». لم أفهم ماذا يقول للوهلة الأولى، ثمّ فهمت. قال إنّ «شقفة» غطّت شجرة الكرز. «شقفه على كل الشجرة». على الشجرة كلّها.

عندما انتهى القصف وخرجنا ذهبت إلى هناك. كان قد مرّ يوم أو يومان لا أعرف. كانوا نظّفوا المكان. أثر القذيفة في الطريق. أثر الشظايا على الحيطان. وشجرة الكرز تكسّرت أغصانها. كنت أراها تزهر في الربيع، أرى زهورها البيضاء الحلوة. لكنّني لا أذكر أنّني رأيتها تحمل كرزًا أحمر. ربما كانت تحمل كرزًا والأولاد الأطول منّي يأكلونه وهو أخضر، لا أعرف. لكنّني أذكر زهورها البيضاء. أذكر الولد الذي كان أنا قاعدًا في المطعم القليل الضوء ـ كنت أحبّ تلك العتمة، العتمة تخفيني عن العيون، ربما تزعل أختي إذا مرّت ورأتني آكل هنا لا في البيت، لا أريد أن أغضبها، وأريد أن آكل هنا، أحبّ الأكل هنا ـ أذكر الولد يملأ اللقمة بالفول الساخن المغمّس بالزيت ويرفعها من الصحن إلى فمه ويلحس أصابعه ويأكل مع الفول بصلاً ونعنعًا طريًّا وبندورة مقطّعة. الفوّال يقطع من أجلي ثمرة اللّفت المخلّلة، يفرمها بأصابع لا

ترجف، مع أنّني أرى أصابعه ترجف وهو يشعل الكبريتة ويولع السيجارة. أذكر الولد قاعدًا في المطعم وأذكر دخان السيجارة يتصاعد وأذكر الشمس في الخارج تنير شجرة الكرز المزهرة.

بقيت زمنًا طويلاً لا أمرّ على ذلك الرصيف إلاّ وأنظر إلى خشب الشجرة. مرّت السنوات وتكاثرت الدكاكين واتسعت الأرصفة وتغيّر شكل الحيّ. بيوت كثيرة ظلّت كما هي، لكن بيوتًا أخرى اختفت وصعدت في مكانها بنايات عالية. شكل الشارع تغيّر. هناك أماكن باتت في الظلّ من الصباح إلى المساء، لا ترى أشعّة الشمس أبدًا. شجرة الكرز اختفت. لا أعرف متى قطعوها. لكنّني أعرف أين كانت.

اختفت؟ هل هي موجودة؟ كنّا كثرًا في ذلك الملجأ. بنايات كاملة ينزل سكّانها إلى ذلك الملجأ متى اشتدّ القصف. نعرف زعيق الصواريخ، هذه تثقب سقوفًا كثيرة، طبقات كثيرة، قبل أن تنفجر. إذا زعقت في السماء نتدحرج على الأدراج إلى تحت الأرض. كنّا كُثرًا تحت. أذكر النيون يطنّ وأذكر الرجل يمسح الماء عن شعره وأذكر المعطف يتدلّى من يده. لا أذكر صوته. لكن الكلمات ـ أثر الكلمات ـ مازال يرسم الصورة في رأسي حتى هذه الساعة. والآخرون الذين كانوا معي في الملجأ، يتذكّرون؟ بالتأكيد يتذكّرون. على الأقلّ بعضهم يتذكّر. لا؟ أحبّ أن أعرف كيف يتذكّرون ذلك.

لا أذكر أبي في الملجأ. أذكر إيليّا يبعد صناديق ثقيلة ويفرش لأمّي. أذكر رجلاً مع عائلته في زاوية (هؤلاء آل طانيوس)، يحضن

زوجته بيد وأولاده بيد: كلّهم يرتجفون، وإذا فتحوا عيونهم ترى البياض، حتى في الظلمة ترى بياض عيونهم. تأتي لحظة يسود فيها الظلام وتتبدّد الأصوات ولا تسمع إلاّ صلاة أو همهمة، ومن زاوية يأتي شخير عجوز لا يقدر أحد أن يبلغها ويهزّ كتفها في هذه الظلمة. أكثر من سبعين شخصًا، هل أذكر أسماءهم اسمًا اسمًا؟ كنت أعرف سكّان الحيّ جميعًا. وأحيانًا يلتحق بنا في الملجأ ناس من خارج الحيّ: عابرو سبيل يباغتهم القصف فيركضون إلى مدخل البناية. الدرج طويل ينزل إلى تحت الأرض. أذكر كتل الشمع المتجمّدة على الدرجات وأذكر مطرات البلاستيك الملوّنة أسفل الدرج. أذكر قدّاحة تشتعل في الظلام وأنا أغفو بين أمّي وأختي، وأرى القدّاحة ترتفع وأرى وجه امرأة، أصفر ومدوّر وشعره الأشقر مبعثر ومجدول بالعرق على الأذنين، والمرأة تبحث في نور القدّاحة عن مشّاية أو غرض أضاعته. أذكر شتائم وأذكر صلوات وأذكر خشخشة الراديو الترانزيستور الصغير تكمل الليل وحدها وأذكر البوّاب يأخذ ذات غروب كوب الشاي ويخرج ليتفقّد الشارع لحظة ولا يرجع.

لا أذكر أبي في الملجأ. إذا بدأت الاشتباكات يختفي. ومن قبل أن تبدأ يختفي. لا يأتي إلى البيت إلاّ كي يأكل أو ينام. في فترات قصيرة تتحسّن صحّة أمّي وتقوم من الفراش وتسعى بين الغرف. في تلك الفترات تظهر الأغطية البيضاء مفروشة على أرض غرفة القعود (حيث لا نقعد). وعلى الغطاء الواسع الأبيض تتراصف صفوف المعمول الشهيّة. أبي يحتفل بأمّي. أذكر المرّة الأولى التي سمعته يقول فيها وهو يشرب قهوة الصباح «اللّحام ذابح». كانت المرّة

الأولى؟ أذكر وجوه أخواتي تفرح وأذكر أمّي تضحك وأذكر إيليّا يضحك أيضًا. هذه عبارة قديمة في تاريخ العائلة، عبارة تعني شيئًا، كأنّها مفتاح إلى قصر يعرفونه، لكنّها جديدة بالنسبة إليّ، لأنّني صغير، لأنّني مستجدّ، ولكنّني الآن أوشك أن أكتشف معنى العبارة. يلبس أبي ثيابه ويخرج من دون أن يأخذ مفاتيح السيّارة. عندما يرجع أرى لفّة اللّحم في يده. أبي لم أرَه يومًا في المطبخ، إلاّ في وقت كهذا. أختي تأتي بلوح الخشب الذي تفرم عليه الخضر وأختي تناوله السكّين. هذه ماري. وتأتي جوليا وتقف عند البرّاد وتمدّ رقبتها وتنظر. يقطع الكبدة السوداء النيئة التي نسمّيها «قصبة». يجلب القطعة كاملة ويقطعها بنفسه ويقطع الليّة البيضاء ويرصف القطع في الصحون. نجوى تساعد في غسل النعناع وتقشير البصل. جوليا تُخرج مكعّبات الجليد من القوالب. إيليّا ليس في المطبخ، إيليّا يساعد أمّي على فرش الطاولة. لا أحد يمزج العرق إلاّ أبي، يمزجه عندما نقعد إلى الطاولة. الوقت صباح ولا أحد يأكل لحمًا ساعة الصباح إلاّ إذا كنّا نأكل «لحمة بعجين». لكنّنا في هذا الصباح نأكل «لحمة» ونشرب عرقًا. يسكب الكؤوس لنا جميعًا. حتى أنا وليليان يسكب لنا كأسًا: يملأ الكأس ماء ومكعّبات جليد ويقطر فيها قطرة عرق. نرى القطرة تقع على الماء ونرى الماء يعتكر برمشة عين ببياض الحليب ثم يتبدّد البياض ولا يبقى إلاّ اللون الشفّاف لكن ليليان تقول لي نحن نشرب عرقًا. أبي يدقّ بكأسه كأس أمّي. جوليا تدقّ كأس ماري. ماري تدقّ كأس نجوى. نجوى تدقّ كأس إيليّا. إيليّا يرتفع عن الكرسي ويميل على الطاولة ويدقّ كأس أمّي ويضحك لها. أنا وليليان نتصارع على

كأس واحدة ونريد أن ندقّ جميع الكؤوس. أمّي تعمل لي اللقمة: قطعة بصل صغيرة، ورقة نعناع طريّة من رأس الفرع (تاج النعناع)، قطعة قصبة سوداء، وقطعة ليّة (دهن أبيض من الخروف). ترشّ عليها ملحًا وقرفة. آكل اللقمة وأعرف أنّها طيّبة وأعرف أنّني أحبّها. لكن ليليان لا تأكل إلاّ الزيتون. ويقولون لها: «انظري، انظري، لماذا لا تأكلين مثل أخيك؟». أنظر إلى الوجوه وأشعر بالحبّ يملأ المكان ومع هذا ألمح نظرة غريبة!

قلت لك مرضت مرّة بالحصبة ومرّة بالجدري. عندما تمرض ترتفع حرارتك وبسبب الحرارة المفرطة يسيل المخّ والذهن يتخيّل أشياء. العلماء يعرفون هذا ويقولون إنّ مايكل أنجلو وهو يرسم القبّة في كنيسة القدّيس بطرس كانت تنتابه هذه الحالة. في المرض نرى رؤى ونعرف تخيّلات لا نعرفها عادة. أنا عندي هذه الذكرى من مرضي: أنا أتجوّل في البيت وحدي (أين هم، لا أعلم. لعلّهم في المدرسة؟ لعلّهم خرجوا إلى بيت الجيران؟ لعلّهم ينامون؟) أنا أتجوّل وحيدًا بين الغرف وأنظر إلى المزهريّة على الطاولة، إلى علبة التنك التي تضع فيها ماري البسكويت على «الدرسوار»، إلى الثياب التي تتركها نجوى مرميّة على سريرها، إلى الكرسي الهزّاز حيث يحبّ إيليّا القعود عندما يزوره أصحابه، إلى النايلون على زجاج النافذة المطلّة على أكياس رمل وعلى شجرة يابسة، إلى حيطان متقشّرة الطلاء وإلى حيطان لم يتقشّر بعد طلاؤها... أنا وحدي في البيت أتجوّل بين الغرف كأنّني أمشي على غيوم. أرى لعبة على الأرض وأفكّر أن أنحني كي ألتقطها وأتخيّل نفسي أنحني لكنّني لا أفعل لأنّني تعبان ولأنّ رأسي ثقيل والثقل يتجمّع في

الحبوب على جبيني. أتابع المشي كأنّ شيئًا غامضًا يناديني إليه (بعد سنوات طويلة، بينما أمّي تلفظ أنفاسها الأخيرة في غرفتها على السرير، وصل أبي إلى البيت مستعجلاً: حَدَس أنّ أمّي تطلبه).

هذه هي الذكرى: بيجامتي القطن مبلولة تلتصق بجسمي المريض وأنا أسير كأنّني في منام إلى أن أبلغ الصالون وأقف قبالة صورة أخي الميت. أرفع عينيّ وأحدّق إلى وجهه. أتأمّل تفاصيل الوجه الذي يشبه وجهي وأركّز بكل ما عندي من قوّة في رأسي الصغير وأحاول أن أتذكّره وهو هنا، في هذا الصالون حيث أقف، وقبل أن يخطفوه ويقتلوه.

«من يعيش وراء خطّ التماس، في «الغربيّة»؟ أستاذ الإنكليزيّة أجاب على سؤالنا: Beasts and Monsters. أنا وأنطوان تنّوري، أعزّ أصدقائي في «القلبين الأقدسين»، ذهبنا إلى «مكتبة فيوليت» جنب «أوتيل ألكسندر» واشترينا شراكة قاموس إنكليزي ـ عربي ونبشنا الكلمتين. من يسكن وراء خطّ التماس؟ حيوانات ووحوش. قتلة وغيلان. بهائم ومسوخ. أنطوان درس معي في مدرسة الناصرة، لكنّه كان في شعبة أخرى ولم نتصادق. انتقلت إلى المدرسة الجديدة وبالصدفة انتقل هو أيضًا. صرنا صديقين. كنّا نسمّيه «باغز باني» (الأرنب) بسبب أذنيه الطويلتين وكان يقول أنا حمار ولست أرنبًا ثم يضحك ضحكته الصاخبة. كان دائم السخرية من نفسه، سريع البديهة، وإذا سخر من أحد الأساتذة أماتنا ضحكًا. حادّ الذكاء ويأخذ أعلى علامات لكنّنا لا نراه يدرس أبدًا. يلبس نظّارتين بإطار من العظم الأسود. قمصانه مكويّة تفوح برائحة الصابون.

تصادقنا في «القلبين الأقدسين» وأكملنا صداقتنا في الجامعة الأميركيّة. بعد ذلك سافر إلى أميركا ليكمل دراسته العالية وظلّ هناك وتزوّج امرأة من تكساس. عنده ابنان: روبرت وتيموثي. تساعدت أنا وأنطوان (أنطوني الآن، يقول) في أوقات صعبة

ومازلنا إلى الآن صديقين ونتبادل الإيميلات ويرسل لي صورًا فوتوغرافيّة. أنطوان يعرف قصّتي. «مكتبة فيوليت» التي ذكرتها احترقت في «حرب التحرير» أو «حرب الإلغاء»، لا أذكر في أيّ من الحربين احترقت. الآن يوجد مكانها محل أحذية. بيت ماري غير بعيد من أوتيل ألكسندر. عندما أزورها أمرّ أمام المحلّ الذي كان «مكتبة فيوليت» وأتذكّر الولدين الواقفين بين المجلاّت والجرايد والكتب القليلة والدفاتر وعلب القرطاسيّة يفتحان القاموس واجمين ويفتّشان عن معنى الكلمة التي لفظها أستاذنا. لم نعرف كيف تبدأ الكلمة، بأيّ حرف: **P** أم **B**؟ كان أستاذنا يلفظ الحروف بطريقة غامضة.

في المدرستين حيث تعلّمت كانت الإنكليزيّة لغة ثالثة إضافيّة. كنّا نركّز على لغتين: الفرنسيّة والعربيّة. وعندما تقدّمنا في الصفوف صرنا نركّز فقط على الفرنسيّة. لكنّني أنا في السنة الأخيرة، وحتى في السنة ما قبل الأخيرة، بدأت أنتبه أكثر إلى الدروس الإنكليزيّة.

في ذلك الوقت لم تكن الحرب انتهت بعد، وجوليا كانت تفكّر في الهجرة إلى كندا مع عائلتها، ونجوى كانت تخطّط للهجرة إلى أستراليا، وماري كانت تقول بين حين وآخر إنّ أقارب زوجها ـ في فنزويلا ـ دائمًا ما يرسلون إليهم الدعوات للسفر والسكن في كاراكاس. إيليّا أيضًا كان يفكّر في الهجرة: عندما بدأت الحروب في قلب «الشرقيّة» قال «عشنا وشفنا»، ووضع يده على فخذه الأيمن، على بطن الفخذ حيث تلقّى ثلاث رصاصات في معركة

بحمدون (حرب الجبل) وبقي قسم مكسور من صاعق مزروعًا جنب عظمة الفخذ.

أبي كان في تلك الفترة خارج العالم. عندما اشتبكوا على ساحة ساسين هرب أحد الجنود إلى الزاروب وراء بيتنا: كان ينزف من ظهره، وكان ينزف من رقبته، ويحتار كيف يسدّ الثقبين بيديه. رمى الرشّاش والآن يداه حرّتان ومع هذا يعجز عن سدّ الثقبين. إيليّا قال بعد ذلك إنّ أبي أخبره. أنا لم أسمع أبي يحكي ويتوسّع في تفاصيل قصّة، عمومًا. إيليّا قال أبي أخبره ولعلّ إيليّا أضاف من خياله إلى القصّة.

كان أبي يُدخل الأقفاص عن الشرفة. يخاف على العصافير، على الكنارات والحساسين، لا من الرصاص ولكن من الضجّة. هذه الجهة من البيت لا يضربها الرصاص إذا اشتبكوا. لا يشتبكون في هذه الجهة. في فترات أخرى كانت الشرفة معرّضة للشظايا. ليس هذه الأيّام. إيليّا يقول إنّ أبي رأى الجندي من فوق. مرّة يحاول أن يسدّ ثقب الرقبة باليدين الاثنتين ومرّة يحاول أن يسدّ ثقب ظهره، عند الكلية. يد واحدة لن تكفي. الدم يتدفّق غزيرًا وكل ثيابه صارت سوداء مبلولة. جارنا نادى عليه أن يذهب إلى المستشفى.

تذكّرت وأنا أسمع إيليّا يحكي، تذكّرت عندما ذهبت مع أنطوان إلى خطّ التماس. هربنا من المدرسة. قفزنا عن السور وراء «ملعب البنات». خبّأنا الحقيبتين في بيت محروق شبه متهدّم ومضينا في رحلتنا. جزء طويل من الطريق كان غارقًا في العتمة بسبب الساتر

الترابي العالي إلى الجهة اليسرى: من هناك يأتي رصاص القنّاصة. أنطوان عنده أقارب بيتهم في طرف «شارع لبنان» على التباريس: يستخدمون نصف غرف البيت فقط؛ الغرف التي تواجه «الغربيّة» مملوءة بأكياس الرمل وبراميل الحجارة.

حتى اليوم عندما أتذكّر تلك الرحلة إلى خطّ التماس يقشعر بدني. كنّا ننظر إلى أمام ونحاول أن نتبيّن تفاصيل البنايات المحروقة البعيدة ونتساءل كيف يعيشون هناك، في البنايات المحطّمة النوافذ، المزروعة رصاصًا وشظايا. كيف يعيشون في تلك البنايات السوداء؟ كنّا لا نعرف، كنّا لا نقدر أن نتخيّل، كنّا لا نستطيع أن نرى ـ من حيث نحن، نسعى خائفين في ظلّ الساتر الترابي البارد العالي، والعرق يبلّ القميص، والقلب ينبض في الفم ـ كنّا لا نرى إلى ما وراء البنايات المحطّمة: بدت البنايات مثل سلسلة جبال من الباطون الرمادي والثقوب السوداء، سلسلة تنخفض ثم تعلو (بعض البنايات مقصوص الرؤوس)، ونحن لم نكن نستطيع أن نرى ما يوجد وراء تلك الجبال. عندما أتذكّر ذلك اليوم البعيد أتذكّر صورتين: صورة تلك البنايات وأنا أرى خلفها ـ في خيالي ـ بنايات تشبهها، وكلّها سوداء ومحطّمة ومنخورة بالقصف، صفّ بنايات وراء صفّ بنايات وكلّها هكذا وكلّها مسكونة. ولكنّنا من هنا لا نقدر أن نرى سكّانها. هذه هي الصورة الأولى. الصورة الثانية: جثّة المرأة السوداء. لم تكن سوداء. كانت امرأة بيضاء. لكنّ القسم الأكبر من جسمها تغيّر لونه، صار قريبًا من الأسود. أنطوان رآها أوّلاً. كنّا نخطو بين الحفر ونحاذر لئلاّ نلطّخ صبابيطنا بالوحل، ومن حين إلى آخر ننحني ونجمع

بعض الرصاص (الفوارغ). . . أنا قلت شيئًا عن الرائحة قبل أن يرى أنطوان المرأة الملقاة بين صناديق ذخيرة محطّمة الأخشاب. كانت الرائحة تقتل وظننت أنّها تأتي من المدينة الأخرى. (إحدى البنات في صفّنا قالت إنّها رأت في منامها «هؤلاء» يتسلّلون في الليل من وراء أكياس الرمل وأنّهم كانوا ناسًا، مثل الناس، مثلنا، لكن وجوههم طويلة وتشبه وجه الكلب، وأظافرهم طويلة، ويخطفون الأطفال من أسرة الأطفال الصغيرة، ويصرخون ويركضون ويختفون ولا يبقى منهم أثر إلاّ الرائحة الغريبة).

أنطوان تجمّد مرعوبًا وهو يدلّني إلى المرأة. مِزَق ثيابها، ما بقي من مزق، كانت مختلطة بالوحول ومتخشّبة كأنّها قطع فحم. كأنّها لم تكن قماشًا. رأيت شيئًا أخضر وأزرق وأسود، يسبح على حفرة جنبها. الحفرة فيها سائل كثيف غريب اللون، والغيمة الصغيرة القاسية تطنّ وتئزّ فوق الحفرة. فم المرأة مفتوح، أسنانها بيضاء والفم أسود.

لا أعرف من كانت ولا أعرف من قتلها ورماها هناك، لعلّها مثلنا كانت تستكشف خطّ التماس وقُتلت برصاصة. تسلّلت من الجانب الآخر؟ لا أعرف من هي ورأيتها لحظة أو لحظتين (لا أقدر أن أقيس الوقت) ثم تراجعتُ أنا وأنطوان، تراجعنا ولم نكمل الطريق وعدنا من حيث أتينا. لم نتكلّم ونحن نمشي، ولم نتكلّم ونحن نركض، ولم نتكلّم ونحن نمشي مرّة أخرى. لم نتكلّم. دخلنا البيت المحروق وأخذنا الحقيبتين. تساعدنا: يساعدني وأنا أضع حقيبتي على ظهري. وأساعده. هكذا لا يتمزّق حزام

الحقيبة. لا أذكر أنّنا تكلّمنا. ربما قال أحدنا شيئًا. لكنّني الآن لا أتذكّر كلمة واحدة. هناك نقطة على الطريق نفترق فيها: هو يكمل إلى بيته، وأنا أكمل إلى بيتي. أذكر إلى الآن تلك النقطة: كانت توجد هناك جنب الرصيف سيّارة قديمة معطّلة يغطّيها الغبار وقاذورات العصافير. قاذورات العصافير تحتوي مادّة أسيديّة تأكل الطلاء عن السيّارة: هذه السيّارة كانت متقشّرة الطلاء، حالتها فظيعة، ودواليبها كلّها مثقوبة. الغبار طبقة سميكة على زجاجها ودائمًا نخطّ على زجاجها كلمات وشتائم وعبارات مضحكة. أذكر أنطوان واقفًا وأذكر السيّارة القديمة: حولنا ناس وسيّارات وعابرون لكن هذا كلّه لا نسمعه ولا نراه. نريد أن نسمعه ونريد أن نراه. لكن كيف؟

في زمن قريب من تلك الرحلة إلى خطّ التماس اختفى إيليّا من البيت. صار يغيب كثيرًا على المحاور، وفي المرّة الأولى التي رجع فيها من الجبل ـ قبل نهاية المعارك ـ رأيت أنّه لم يعد هو: فجأة صار يشبه أبي. لا أعرف كيف أشرح ذلك، هذا كلّه يبدو صبيانيًّا، أن يتغيّر شكل الواحد بين يوم ويوم، أو خلال أسبوعين، وأن يتغيّر بالطريقة ذاتها التي... اسمعْ، هذا كلّه لن يبدّل شيئًا، هكذا رأيت إيليّا عندما بدأ يقاتل: كأنّه ليس هو.

ليس أنّه تغيّر معنا. ليس أنّه صار عنيفًا (مع أنّه بعد ذلك بزمن، بعد وفاة أمّي، ارتكب خطأ مع نجوى ولا أظنّ نجوى حتى الآن تسامحه على ما فعله). لا، ليس ذلك. بالعكس: كان حين يرجع إلى البيت يقعد على السرير، جنب رأس أمّي، ويتكلّم معها ويُسرّح

شعرها بأصابعه. وعندما نجلس إلى العشاء يمزح مع جوليا وماري، ويمزح مع نجوى وليليان، ويمزح معي، وأكثر من مرّة يقوم عن طعامه ليجلب شيئًا من البرّاد وهو يقول: «كل واحد يجلب ما يريد». ولا يقبل أن يجلب له أحد شيئًا. لا يقول شيئًا عن المعارك في هذه الجلسات. يقول «نقعد في المتراس طوال الوقت ولا نفعل شيئًا». لكنّه ـ بصوته، بنبرة الصوت وبالابتسامة ـ يخبرنا أنّه لا يقعد في المتراس أبدًا. إذا جلست أمّي معنا إلى العشاء يقعد جنبها (هي تأتي وتقعد لصقه أصلاً). يُطعمها وتضحك وتقول «أنا أمّك يا بلا أدب» وتبوس رأسه. هي تبوس رأسه وهو يبوس رأسها. أبي نادرًا ما نراه مع أخي في الوقت ذاته. نعرف أنّهما يلتقيان دائمًا: يلتقيان في أماكن كثيرة، لكن نادرًا ما كانا يلتقيان في البيت (بيتنا) أثناء «حرب الجبل».

لم يحكِ إيليّا عن الحرب أمام أمّي وأخواتي (فيما بعد عرفت أنّه كان أحيانًا يحكي أشياء لجوليا ويحكي أشياء لنجوى). لكنّني بعد رجوعه إلى البيت، بعد الإصابة في فخذه وتعافيه منها، سأسمع منه حكايات كثيرة. الحكايات ستغيّره أمام عينيّ مرّة أخرى: لن أراه شبيهًا بأبي وهو يحكي. وجدته شبيهًا بأبي وهو يطعم أمّي، وهو يضحك لأخواتي، وهو يفتح البرّاد ويخرج قنّينة البيرة ويفتحها ويرمي السدّادة على المجلى ويستدير. وجدته شبيهًا بأبي وهو يدخل الباب ويضع السلاح على الكرسي ويرسم على وجهه المتعب (المظلم) ابتسامة: كأنّه يُبدّل ملامحه من أجلنا. في تلك اللحظات وجدته شبيهًا بأبي. لكن عندما بدأ يحكي تلك الحكايات عن الاقتحامات والدفاعات والغارات والمذابح لم أجده شبيهًا

بأبي. أكثر من مرّة قال إنّ ذلك يشبه ما جرى في المكان الفلاني في الفترة الفلانية وأكثر من مرّة أدخل أبي في الحديث وأكثر من مرّة أرادني أن أفهم أنّه مثل أبي تمامًا، وأنّ أبي مثله، أنّهما نسخة طبق الأصل... عندما يرى أنّني لم أعد أسمع، عندما يرى أنّني أضيع منه يُغيّر الحديث، يخبرني مثلاً أنّ أحد رفاقه قُتل هنا خطأ، كل المعارك لم تقتله لكنّه هنا وهو ذاهب إلى البيت نصف سكران لم يرَ الحاجز وقوّصوا عليه: رفاقه قوّصوا عليه وقتلوه من دون أن يعرفوا. «طوال الوقت كان يقول لنا إنّه لا يسكر، أنّه يشرب برميل ويسكي ولا يسكر، انظرْ المنحوس».

لماذا كنت أتضايق من قصصه؟ بسبب القصص ذاتها؟ سأقول لك هذا، وأنا أظنّ أنّه صحيح: ليست قصصه السبب؛ السبب نظرته. كان ينظر إليّ نظرة لا أفهمها. نظرة طالما رأيتها في عيون تحدّق إليّ ولا أفهم لماذا تحدّق إليّ هكذا. كان يصف شيئًا محدّدًا مثلاً ثم يركّز كل نظرته في نقطة محدّدة من وجهي: كأنّه سيحرقني بهذه النظرة. قلت لك شيئًا مثل هذا من قبل. أنا أكرّر شيئًا قلته من قبل، لا؟ أظنّ ذلك.

هذا الشعور الغريب لازمني سنوات: في نقط مختلفة من حياتي واجهت هذا الموقف الصعب. ودائمًا كنت أعجز عن نطق ما أفكّر فيه. كنت أريد أن أقول لإيليّا: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟» ولا أعرف كيف أقول ولا أعرف كيف أشرح ولا أعرف كيف أبعد هذه النظرة ولا أعرف كيف... مرّات كثيرة شعرت بهذا العجز المخيف. حتى أمّي رأيتها مرّة تنظر إليّ تلك النظرة وأنا غير منتبه. كانت

نائمة، شبه نائمة، وكنت جالسًا على حافّة السرير أقرأ كتابًا. كانت تحبّ أن يجلس أحدنا في غرفتها وألاّ تبقى وحدها وقتًا طويلاً في السرير. كنت أقرأ كتابي وبين حين وآخر أرفع وجهي وأنظر إلى شيء على الكومودينة (صورة مار شربل المؤطّرة، كوب الماء، الساعة الفضّيّة الميناء بالربطة الجلد) أو أنظر إلى وجه أمّي الغارق في سلام النوم. كنت أحبّ هذا الوجه النائم وأحبّ أن أنظر إليه وينتابني سكونٌ غريب وأنا أنظر إليه. كنت أقرأ في كتابي عندما أحسست بالنظرة المسلّطة عليّ: التفتّ على مهل ورأيت تلك النظرة الغريبة. عندما رأت أنّني رأيتها أغمضت عينيها. لا أنسى تلك اللحظة. لا أنسى تلك اللحظة أبدًا. تكسّرت في أعماقي أشياء وأنا أرى تلك النظرة في عينيّ أمّي.

الغريب أنّني في حياتي كلّها لم أرَ مثل تلك النظرة في عينيّ أبي. ألا ترى ذلك غريبًا؟ في حياتي كلّها لم أرَ تلك النظرة في عينيه إذا نظر إليّ. أبدًا، أبدًا. أختي نجوى تقول إنّ أبي لغز، تقول إنّها لا تحبّه، تقول إنّها حقًّا لا تحبّه، لكن مع هذا لا تقدر أن تقول إنّها تكرهه. أبي لغز، تقول. وتقول: أبوك لغز. مع أنّنا الآن نعرف (وهي من البداية تعرف) أنّه لم يكن حقًّا أبي.

لكنّه أبي. أليس أبي؟ أذكر عندما ضرب إيليّا بعصاه. كان إيليّا يحمل عصا بسبب الإصابة في ساقه. من دون العصا لا يقدر أن يمشي. كان يخاف أن يتحوّل أعرج. أحد الأطبّاء قال له إنّ ذلك احتمال ضئيل لكنّه احتمال موجود بسبب القطعة الباقية في الفخذ، القطعة غاص جزء منها في العظم ومكانها صعب، قد يفقد ساقه إذا

حاولوا استخراجها وفشلت العمليّة. إيليّا أخبرني عن صديقه الذي فقد ساقه. كنت أعرفه، مرّات أراه معه في الشيفروليه الحمراء التي يملكها هاغوب مانوكيان ويقول إنّه غنمها من «أهمّ قائد عسكري في الغربيّة»: لم يغنمها في الحرب. اجتمعا في مكان ما، اجتمعا في كازينو سرّي أو في بيت دعارة على خطّ التماس (كل مرّة يتغيّر تفصيل في القصّة) ولعبا عليها روليت. روليت أو بوكر أو ليخا أو سبعة ونصف (كل مرّة يتغيّر تفصيل). كان صديقه يركض في «خراج سوق الغرب» وداس لغمًا. هو داس اللغم أم الذي يركض جنبه؟ شخص ما داس لغمًا وصديق إيليّا طار في الفضاء وعندما هوى على الأرض اكتشف أنّه فقد ساقه. ثم غاب عن الوعي. وكان يلعب فوتبول، يقول إيليّا. ويقول هذا أكثر ما يزعجه: أنّه لن يلعب الفوتبول بعد الآن. في المستشفى يقف على العكّازين ويقفز على ساقه الواحدة ويطلب كرة كي يتسلّى في الممرّ.

أبي لم يغضب من قصّة إيليّا لكنّه غضب من الأساور الذهب. إيليّا جلب إلى البيت «غنائم حرب». أبي أخذ منه العصا ـ قال له: «العصاية»؛ طلب منه العكّاز ـ ورفعها عاليًا ونحن لا نعرف ماذا يفعل (لم يتغيّر صوته وهو يطلب العصا، لم ننتبه أنّه يغلي غضبًا) وهوى بها على ذراع إيليّا. وأنا أقول لك هذه الكلمات أكاد أسمع الطقّة على العظم. الطقّة والجملة المسنّنة الخارجة مثل أفعى من فمه: «تسرق يا ابن الكلب»!

لم نرَ غنائم حرب في البيت بعد ذلك. هذه الذكرى مربوطة بذكرى أخرى من الفترة التي أعقبت وفاة أمّي: كنت في حزنٍ شديد

وعندما أكون في الصفّ ويسألني الأستاذ سؤالاً أعجز عن الحكي. أصابني ما يشبه البكم بعد موتها. ماتت وأنا قاعد جنبها على التخت. كانت تبكي وهي تنظر إليّ. لا أنسى وجهها وهي تموت. لم أعد أرغب الطعام. حتى ماء لم أكن أشرب. في الصفّ أسمع ولا أسمع. أرى الحروف والأرقام على اللوح ولا أعرف ماذا تكون. أسمع الطبشورة، الحفيف المزعج، الصرير. أسمع الطبشورة تنكسر. أسمع ظفرًا ينكسر. أرى عصافير تطير خارج نوافذ الصفّ. أرى صفًّا من أشجار الصنوبر. أرى المادّة الصفراء التي تسبّب الحساسيّة تطير من الأغصان. أرى الأكواز اليابسة تقع على شرفة الطابق، تتقافز مثل سناجب ثم تسقط إلى الملعب. أسمعها تطرطق على الحافة الباطون. أرى الوجوه ولا أرى الوجوه. تهبّ الرياح وتقع الأمطار. تبتعد الغيوم ويصحو الطقس. هذا كلّه لا أشعر به. الفصول تدور لكن أنا خارج الدورة. كنت مجوّفًا. والأستاذ يسألني شيئًا وأنا أبقى ساكتًا ثم أسمع ضحكًا (هل يضحكون؟ أنا غير متأكّد) ثم لا أعود أسمع شيئًا. صرت أغادر البيت حاملاً كتبي كما أفعل كل صباح، لكنّني لا أذهب إلى المدرسة. آخذ السندويشة التي تلفّها لي ماري في الورق الأسمر لكنّني لا أذهب إلى المدرسة. أدور حول الحيّ، أذهب في طرق لا يسلكها الجيران، وأمضي إلى أيّ مكان بعيد. بعيد من ماذا؟ مكان أين؟ كنت لا أرى أين أذهب. ذات مرّة وجدتني في مكان يعجّ بالدكاكين. مكان غريب لم أذهب إليه من قبل. سمعت لغة أفهمها ولا أفهمها. بقيت وقتًا وأنا في حيرة ثم تذكّرت. تذكّرت اللغة ورأيت لافتات الدكاكين. وقفت أتأمّل المارّين وآكل

السندويشة. حتى الآن أذكر ماذا كانت السندويشة: سندويشة زيت وزعتر مع ملفوف.

دماغ الإنسان لا يُفهم. كيف أتذكّر إلى الآن ماذا كانت السندويشة؟ لماذا يحتفظ دماغي بذلك التفصيل ويتخلّى عن كل التفاصيل الباقية؟ أنا لا أذكر مثلاً أيّ طرقات سلكت في ذلك النهار بينما أمشي شاردًا من السيوفي إلى برج حمّود. لا أذكر إطلاقًا. هل أخذت طريق الكرم؟ هل أخذت طريق الطواحين؟ في أيّ طرقات ذهبت إلى برج حمّود؟ لا أذكر. ولماذا بدت لي اللغة الأرمنيّة لغة من كوكب آخر (عندنا في السيوفي جيران أرمن. معي في المدرسة أصدقاء أرمن. أسمعهم يتكلّمون دائمًا. مفردات كثيرة أعرف معانيها. مع ذلك عندما سمعت الكلام حولي في ذلك اليوم فكّرت أنّني في عالم آخر!).

وقفت أقضم السندويشة وكتبي ودفاتري تحت إبطي، ملفوفة بـ «المغيّطة» (كنت بدأت أكبر، وعندما يبدأ ذلك وأنت في المدرسة تتخلّى عن الحقيبة ـ الحقيبة للصغار ـ وتلفّ كتبك ودفاترك بالمغيّطة... وإذا كبرت أكثر تتخلّى عن الكتب أيضًا، وتذهب إلى المدرسة حاملاً دفترًا فقط، وفي سلك الدفتر ـ السلك الحديد اللولبي الذي يجمع أوراق الدفتر ـ تزرع قلمًا، قلم بيك أزرق).

وقفت في متاهة الحيّ الأرمني، وقفت في ضجيج الكلمات الغريبة والوجوه الغريبة والسيّارات الغريبة والبنايات الغريبة والمتاجر الغريبة، وقفت هكذا أقضم سندويشتي والدموع تجري على وجهي وأنا لا أعرف أنّ الدموع تجري على وجهي. اقترب

رجل منّي وقال اسمي. نظرت إليه ولم أفهم كيف عرف اسمي. كان وجهه يسبح في الماء، والسيّارات التي تعبر في الشارع تسبح في الماء، والمصابيح الكهرباء التي تزنّر لافتات الدكاكين تسبح في الماء، والبضاعة في الواجهات تسبح في الماء. . . نظرت إلى الرجل وانتظرت حتى ابتعد الماء.

ـ أنت ابن فيليكس. ماذا تفعل هنا؟

أخذني الرجل من ذراعي وأدخلني إلى دكانه. أجلسني على كرسي وجلب لي ماء. كان المكان يعجّ بالبرّادات. فتح برّادًا من البرّادات وأخرج إبريق ماء. سقاني وسألني هل يوجعني شيء؟ شكرته على الماء. مسحت وجهي بكمّي وهو يخرج الإبريق من البرّاد. مسحت وجهي وأنا أسير معه إلى الدكّان. مسحت وجهي وأنا أقعد على الكرسي. عندما سقاني وسألني هل يوجعني شيء شكرته على الماء.

شكرته على الماء ولفظت اسمه (أعرفه، يسكن جنب بيت الحلو، في نهاية شارع السيوفي، أعرفه ويعرفنا) وقلت إنّني تأخّرت على المدرسة. قبل أن أخرج من الدكان قال لي (وأنا أخرج، وأنا أخطو خارجًا من العتبة): «يا مارون انتبه لنفسك وانتبه لأبيك، اقبلْ؛ كلمته دائمًا، بابا فيليكس آدمي، يده لم تتوسّخ، آدمي بابا فيليكس».

قال هذه الكلمات؟ قال شيئًا يشبهها؟ قلت لك عقل الإنسان غريب. من الأشياء التي أجد دائمًا صعوبة في تذكّرها: ترتيب الكلمات. الصور أتذكّرها. لماذا لا أتذكّرها؟ كل ما تراه في

حياتك، كل شيء تراه، لماذا تنساه؟ أنت تراه، هو انطبع في ذهنك، لا؟ وبما أنّه انطبع في ذهنك فهو موجود. موجود في رأسك، لا؟ موجود في ذاكرتك، لا؟ وإذا بحثت عنه مفروض أن تعثر عليه. قلت لك إنّني لا أذكر الطرقات التي سلكتها في ذلك اليوم من السيوفي إلى برج حمّود. لكن إذا حاولت، إذا حاولت جاهدًا، ألا أقدر أن أتذكّر؟ ربما لا أقدر. هذه مسألة أصعب من تذكّر صورة واحدة: صورة البرّادات والغسّالات في ذلك الدكان أتذكّرها. صورة الإبريق الشفّاف وهو يخرج من البرّاد أتذكّرها. لكن هذه صورة واحدة. ليست سلسلة صور. بينما الطريق من السيوفي إلى برج حمّود سلسلة ويمكن أن أنسى ترتيبها؛ هذه أصعب. لكن أنا أظنّ أنّ الصعوبة ناتجة عن السبب النفسي: كنت بائسًا في ذلك اليوم، كنت أنظر ولا أرى أمام قدميّ شيئًا. لهذا نسيت الطرقات. لهذا وجدت نفسي فجأة في مكان غريب أسمع لغة غريبة. لم أكن أرى ما أراه. ولهذا نسيت.

أخبرتك هذه القصّة لأنّها مربوطة بضربة العصا على ذراع إيليّا. مثل هذا الكلام سمعته كثيرًا في جنازة أمّي ثم في جنازة أبي. كنت أظنّ أنّ أهل الحيّ يحبّون أبي وهم يخافون منه. لكن كلمات مثل هذه الكلمات، أسمعها صدفة هنا أو هناك، دلّتني إلى حقيقة لم أتوقّف عندها كفاية: يحبّونه أيضًا لأنّه لم يسرق، لم «يُوسّخ» يديه.

والدم؟ أبي ليس هنا ولا أقدر أن أسأله. في الجامعة درست Mechanical Engineering. لا تسألني لماذا اخترت هندسة الميكانيك. كانت الفكرة أن أدرس هندسة: كهرباء، كومبيوتر، ميكانيك، عمارة، مدني، هذا لم يكن يهمّ. قُبلت في الميكانيك

فدخلت الميكانيك. كانت عندنا مادّة اختياريّة في الفصل الأوّل، مادّة نختارها كما نشاء من كلّيّة الفنون والعلوم وليس من كلّيّة الهندسة. الجامعة الأميركيّة أنت تعرفها. أنا كنت أحبّ القسم الفوقاني ولا أحبّ التحتاني. الهندسة في التحتاني وكنت أحبّ عندما أصعد إلى ذلك الصفّ في المادّة الاختياريّة.

المادّة المذكورة في قسم الأدب الإنكليزي: ندرس مسرحيّتين من مسرحيّات شكسبير. أنا لم أكن أعرف من شكسبير قبل ذلك غير «السونيتات». كان الأستاذ ـ أبيض اللحية، يدخّن الغليون، ويداه كبيرتان كأنّه اشتغل بالأرض طوال حياته ـ يقف أمامنا ويمثّل المشاهد. هو يمثّل المشاهد وأنا أتذكّر أشياء قديمة. في ذلك الوقت، وأنا أعيش أسابيعي الأولى في الحرم الجامعي، أصيب أبي بالجلطة الثانية.

أخبرتك قبل ذلك عن العمليّة في «مستشفى رزق»: هذه أتت بعد الجلطة الأولى. لولا تلك الجلطة لما عرف الطبيب بوجود الورم في الرأس. الجلطة دلّته. كان أبي قبل ذلك يذهب إلى حكيم العيون لأنّه بدأ يفقد بصره في العين اليسرى. حكيم العيون لم يكن ماهرًا كفاية. لم يعرف ماذا يحدث. كان ـ لو انتبه ـ وفّر على أبي تلك الجلطة الأولى.

لكنّ العمليّة، ولو أنقذت أبي من الموت، لم تكن كافية. انتزعوا قسمًا من الورم. كان مستحيلاً استئصال الورم كاملاً وإلاّ عطبوا أعصاب الدماغ ومادّة الدماغ. الطبيب شرح لنا بعد العمليّة كل ما صنعه. معهم أدوات دقيقة، مثل الملاقط الصغيرة، ويلقطون

المادّة الخبيثة برؤوس الأدوات ويسحبونها. كل لحظة يسحبون نتفة صغيرة. الطبيب ظلّ يعمل في دماغ أبي ثلاث ساعات متواصلة. حتى لم تعد يده تقدر. سحب نتف المادّة الخبيثة، نتفة بعد نتفة بعد نتفة. هذه المادّة مزيج من لحم طري هلامي وأغشية وشرايين دمويّة: الصعوبة تكمن في وجودها بين الأعصاب السليمة، عند قشرة المخّ. الورم يتغلغل كالجذور بين الأعصاب. أقلّ خطأ ويُعطب المريض.

العمليّة الأولى في رأس أبي مربوطة بما قاله إيليّا في تلك الليلة: بينما يصف لي النهار الذي خرج فيه أبي بالمشّاية كي يتعرّف على جثّة أخي الصغير في برّاد أوتيل ديو، بينما يقول «خبط يده على رأسه» شعرت بألم في دماغي: كأنّني أبي المطروح على ظهره تحت المصابيح البيضاء الوهّاجة، هناك، وراء الأبواب الموصدة. وكأنّ أبي، بينما يخبط يده على رأسه في ذلك اليوم البعيد (قبل أن أصير أنا جزءًا من عالمه)، أصاب رأسه ومن دون أن ينتبه بالعطب القاتل.

هذه الفكرة الأخيرة قد لا تكون صحيحة. أنا الآن أظنّها صحيحة. لكنّني لا أظنّ أنّني فكّرت فيها وأنا في «مستشفى رزق» تلك الليلة. أذكر شعوري وأنا أسمع إيليّا يحكي: شعرت برأسي ينشطر إلى نصفين. أردت أن أرفع يديّ وأن أقبض على رأسي بين أصابعي لئلاّ ينشطر (وأنا قاعد على الكرسي في قاعة الانتظار) نصفين. هذا ما أحسست به: أنّني مثل أبي أتعذّب بورم في دماغي. أكثر من ذلك لم أفكّر. إلى هذا الحدّ فقط وصلت.

بعد العمليّة الأولى لم يسترجع أبي البصر في عينه المهدّدة. مع هذا أكّد لنا أكثر من طبيب أنّ العمليّة تُعتبر ناجحة. صحيح أنّ العصب عُطب والعين انطفأت لكنّ العمليّة مع ذلك ناجحة: الورم كان يهدّد أكثر من عصب واحد. الورم كان يهدّد أبي بالشلل. نجا أبي من الشلل وصار يرى بعين واحدة. تهدّل جفن العين الأخرى وبدا فجأة كأنّه كبر في السنّ عشر سنوات دفعة واحدة.

ظلّت العين اليمنى ترى وحدها. بهذه العين اليمنى رآني أدخل البيت أسود الوجه وأنا عائد من بيت خليل صفَيْر، والد هيلدا.

قلت لك عنها. سأصل إلى هذه النقطة في قصّتي. لكنّني أحاول قدر استطاعتي أن أتحرّك بترتيب زمني معقول. مهمّ أن يتمكّن الواحد من ترتيب الأشياء: هذا مهمّ. أختي نجوى تقول إنّ عندي هذا الهوس. لعلّها على حقّ: في بناية الداخلي كلّها، وحدها غرفتي لم تكن مكبّ نفايات.

كنّا في «حرب الجبل»: أثناء فترة النقاهة، بينما إيليّا يسهر على السطح مع أصحابه وساقه ملفوفة بالشاش، ذهبت نجوى كي تتدرّب مع المقاتلات الكتائبيّات في حقول بكفيّا ثم في غابة بشرّي. تحت سقوف الأرز تعلّمت أن ترمي قذائف صاروخيّة: تدرّبت على الأر. بي. جي. وعلى الـ ب 7. أخبرتنا عندما عادت أنّها وهي تحمل أسلحة حملها من قبل العدوّ (هذه غنائم) فكّرتْ أنّ الحرب قاسية وصعبة ولا يحتملها الجميع. إيليّا سألها هل ستقاتل؟ نجوى قالت إنّ معها رفيقة أصغر منها بسنوات وفي الدورة في بشرّي رأت رفيقتها (هذه جانيت صوايا، قُتلت بعد ذلك في

الاشتباكات التي أعقبت «الاتفاق الثلاثي») تحمل أحزمة الرصاص على رقبتها وتقفز فوق سواتر وترقد على بطنها وراء مدفع دوشكا رشّاش. قالت إنّها رأت رفيقتها تزعق وهي ترمي على الدوشكا والصواعق تتكسّر على الصخور والأشجار في القاطع المقابل. قالت إنّ رفيقتها صغيرة، لعلّها في الثالثة عشرة، صغيرة لكنّها تُخيف. قال إنّ رفيقتها وهي تُغيّر الذخيرة أمسكت قسطل الدوشكا وحديد المدفع الرشّاش التصق بلحم أصابعها. مسحوا أصابعها بالزيت ولفّوا اليد بالشاش ولم ترَ دمعة في عينيها. إيليّا سألها لماذا ذهبت تتدرّب إذا كانت تخاف هكذا؟ نجوى قالت إنّها لا تخاف وإنّها لم تتكلّم عن الخوف أصلاً.

هل كانت خائفة؟ أنا درّبني إيليّا على السطح وهو يشرب عرقًا ويقضم كبيسًا. درّبني على فكّ السلاح وتنظيف السلاح وتركيب السلاح. درّبني على تجهيز أمشاط الذخيرة. وأخذني إلى الملعب القديم ودرّبني على الرماية. على السطح، وهو يضحك في الليل نصف سكران ويُزيّت نابض البندقيّة ذات المنظار ويعطيني تعليمات (إذا كانت الريح تهبّ من هذه الجهة عليك التصويب هكذا؛ وإذا كنت تطلق قذيفة ب ـ 7 عليك أن تتذكّر أنّها قذيفة غريبة، خفيفة المؤخّرة لكنّها ثقيلة عند رأسها، الهواء يبرمها وهي طائرة إذا كان الهواء قويًّا. . . الذي معك يقيس سرعة الريح وأنت تسدّد على هذا الأساس، تُسدّد جنب الهدف والريح تأخذ قذيفتك إلى الهدف)، تحت خيمة القصب حيث سيُعلّق أبي أقفاص الكنارات بعد سنوات ويقعد كأنّه صار نصف إنسان بعد أن فقد أمّي، كان إيليّا يحكي ويضحك وينسى ما جرى في الجبل وكيف انتهت الحرب. . . مع

أنّ «الشرقيّة» امتلأت بالمهجّرين ومع أنّ نصف رفاقه توزّعوا مصابين على مستشفيات أو ضاعوا في الأودية. كان يضحك ويقول لي أن أنتبه ومن يعلم فربما اضطررت يومًا إلى حمل السلاح فهذه الحروب طويلة ولا تنتهي والواحد إذا خسر معركة فهو لم يخسر الحرب ومن يربح مرّة يخسر في مرّة أخرى وهكذا دواليك حتى يمحو أحدنا الآخر، إمّا نحن إمّا هم، ونحن منذ قرون هنا ولن نذهب إلى مكان آخر.

كان يحكي ويشرب ثم ينبطح على الفرشة الإسفنج وينام. مرّات لا نكون وحدنا. كان هناك رفيق له يأتي دائمًا في تلك الأيّام وكلّما أتى يجلب معه بسطرما. لا أعرف كيف نسيت اسمه. نادرًا ما نسيت اسمًا لكنّني نسيت اسمه. قاتل معه في الجبل. طويل القامة، فارع الطول بعكس إيليّا. شعره أسود جعد وعندما يلعب الورق تظلّ أصابعه في شعره كأنّه يفرك دماغه. مرّة بقينا وحدنا، أنا وهو، بينما إيليّا يشخر غارقًا في النوم. أشعل سيجارة لي من سيجارته وقال «تعال نمشِ». مشينا إلى حافة السطح، إلى وراء خزّان الماء. من هنا كنّا نستطيع أن نرى أضواء الدورة وأضواء التلال المقابلة. في خليج الدورة، على صفحة الماء المظلمة، كانت تتلامع أضواء سفينة راسية. الرجل الذي نسيت اسمه أخبرني من دون أن يرفع صوته هذه القصّة: كانوا يقتحمون قرية في وادٍ في الجبل، قرية صغيرة، ضيعة تتكوّن من حفنة بيوت. لا يعرف لماذا اقتحموها. لا يعرف من أعطى الأمر. هو وإيليّا دخلا بيتًا صغيرًا. «لن تصدّق أيّ قرية بدائيّة هي! لن تصدّق أنّ قرية كهذه مازالت موجودة في هذا العصر. مازالوا يربّون ديدان القزّ، هل تصدّق؟ والملاعق في

بيوتهم خشب، هل تصدّق؟ هم يهربون ونحن نقوّص. عادة لا يهربون. تلك الليلة هربوا. إيليّا رأى ولدًا يختبئ وراء الخراف. خرج الولد وفي يده بارودة وقوّص على إيليّا. أنا سألت إيليّا كيف فعل ذلك، كيف ترك الولد يُقوّصه. هل تعرف ماذا قال؟ تردّد، لم يستطع أن يقوّص على الولد. قلت كيف؟ كيف تفعل ذلك؟ ماذا كنت تفكّر؟ هل تعرف ماذا قال لي؟ تعرف ماذا قال أخوك؟ قال: كنت أفكّر في مارون».

لا أعرف لماذا أخبرني ذلك الرجل تلك القصّة. نظرت إلى وجهه فرأيت أنّه ينظر إلى نقطة بعيدة: لعلّه ينظر إلى السفينة الراسية في خليج الدورة، لعلّه ينظر إلى الأضواء المتلامعة على البحر. وجهه المحايد لم يخبرني شيئًا (هل أتخيّل هذا الآن؟ أتذكّر أم أتخيّل؟ وكيف أعرف الفارق بين الاثنين؟ الذاكرة خزّان فظيع، بئر عميقة، طبقات على طبقات على طبقات، ماذا تطمر وماذا لا تطمر؟).

نجوى لم تحارب. اشتركت في دورة أخرى ـ زرع ألغام ـ لكنّها لم تحارب. عندما كُنّا نُذكّرها فيما بعد بفترتها الحربيّة كانت تضحك وتقول إنّه جنون وراثي. هل هو جنون وراثي؟ أذكر بعد أن ضرب أبي إيليّا على ذراعه، أذكر هذه الصورة: إيليّا يقف في الصالون ليلاً والصالون مطفأ الضوء. الضوء يتسرّب من الخارج أو من غرفة أخرى وأنا ألمح شبح إيليّا واقفًا في ظلام الصالون والشاش الأبيض ظاهر في الظلمة. كان يقف بلا العكّاز؟ لا أذكر. لكنّني أذكر ساقه الملفوفة بالأبيض وأعرف أنّه كان يواجه الصورة

المعلّقة على الحائط. ماذا كان يفعل؟ يتكلّم مع الصورة؟ ماذا يقول؟

في تلك الفترة جاء جورج صادر وطلب يد أختي. درس أصلاً محاماة ثم تدرّج في مكتب إدّه لكنّه لم يمارس. اشتغل في شركة فتّال ثم فتح على حسابه وصار يستورد ويصدّر في أحلك أيّام الحرب ويتاجر بالعملة. أمّه قريبة أمّي ويزورون بيتنا في المناسبات وأمّي قبل أن تتعب كانت دائمًا تأخذ أخواتي وتزور بيتهم. أبي سأل جوليا ما رأيها. أذكر كلماته:

ـ القرار قرارك. هذه حياتك وأنت تختارين وأنا أبوك وأدعمك في الحالين.

إيليّا تكلّم:

ـ كثر يرغبون في التقرّب من. . .

أبي أسكته:

ـ أنا لم أسألك يا إيليّا، سألت أختك. الرجل جاء وطلب يدها، لم يطلب يدك.

كان وجه جوليا صافيًا؛ نظرتْ إلى أبي بعينين صافيتين:

ـ كبرت يا أبي ولا أريد أن أنتظر أكثر. الرجل آدمي وقريب، لماذا أقول لا؟

أبي قال:

ـ مبروك.

أثناء فترة الخطوبة كان الرجل يأتي كل غروب ويقعد مع أختي في الصالون. أمّي تقعد معهما قليلاً وماري تقعد قليلاً ونجوى تقعد قليلاً، وكذلك ليليان. أدخل وأصافحه ونتبادل كلمات قليلة وأخرج. إيليّا أيضًا يفعل ذلك. الرجل مرّة يحمل معه علبة بقلاوة ومرّة علبة جاتوه من «شوكولا نورا». في إحدى المرّات جلب من بيت أهله (هذا من أمّي، قال) «مرطبان زجاج ضغط» مملوءًا مربّى غريب اللون، يشبه مربّى المشمش ومربّى الدرّاق لكنّه مختلف الرائحة. قال إنّ هذا المربّى لا يُصنع إلاّ في الجبل ويطبخونه من اللّقطين. كان بلون الليمون وعندما ترفع الشوكة ترى الخيوط. لا أنسى ذلك المساء: بينما آكل الحلوى الغريبة شعرت ببكاء صامت يتصاعد في أعماقي. كنتُ وحدي في المطبخ، واقفًا إلى المجلى الأبيض، والصحن على المجلى. أكلت شوكة أخرى والرائحة العطريّة (ما هذه الرائحة؟) تملأ أنفي (تملأ رأسي، تملأ قلبي، أعرف هذه الرائحة، أعرف هذا الطعم، المادّة الغريبة تذوب على لساني، تذوب بين أسناني، وعاطفة غريبة غامضة تتدفّق فيّ). لا أنسى وقوفي في المطبخ وحدي، وضوء اللمبة يقع على بلاط المجلى ويلمع على المادّة الصفراء في مرطبان الزجاج الضغط. ماذا كنت أتذكّر عندئذٍ؟

بعد سنوات، بينما خليل صفَيْر يوجّه إليّ كلماته باسمًا، بينما الصالون الواسع في بيته الواسع يضيق على جسمي ويسحقني بالسجاد واللوحات والتحف والثريّات المضاءة قبل أن يغيب ضوء الشمس، شعرت بالطعم ذاته على سقف حلقي: بعد أن أكلنا الكبّة بالصينيّة باردة وخالية من الطعم جلبت الخادمة مربّى.

في المرّة الأولى (وأنا في مطبخ بيتنا) تدفّق نهر من الضوء في قلبي. في المرّة الثانية (وأنا أواجه الوجه الذي يعتكر ويتلبّد بينما يرسم ابتساماته الصفراء) اقتحم الظلام عينيّ وطلبت أن أختفي من العالم. ذكريات محدّدة تستدعي ذكريات محدّدة، تترابط بحبال لا نراها لكنّها حقيقيّة.

عندما خرج الجيش من «الغربيّة» في شتاء الـ 84 رجعت نجوى من عملها في «زهرة الإحسان» وأخبرتنا وهي تضع كتبها ودفاترها وأوراق الامتحانات على طاولة السفرة (الطاولة تحوّلت مكتبًا لها) أنّها لن تبقى في هذا البلد. «كل يوم نقول لا بدّ أن تنتهي هذه الحرب، وكل يوم تخرب أكثر، لن تنتهي». بعد ست سنوات من جملتها قصفوا القصر الرئاسي واقتحموا «الشرقيّة» وانتهت الحرب: لم تكن هنا، كانت في باريس. على التلفون سألتني عن الأحوال وسألتني عن صحّة أبي. أنا كنت أسمع صوتها الآتي من البعيد وأتذكّر جلوسها مع جوليا وخطيب جوليا في الصالون: جولياً وخطيبها يجلسان على الكنبة تحت الصورة المعلّقة بالشريط الأسود في زاويتها، ونجوى تجلس على الكنبة التي تواجه الصورة (في الليل تتحوّل هذه الكنبة فراشًا لها: تفرش على مخملها غطاء من القطن ـ المخمل يُسبّب لها حساسيّة في البشرة، يتغطّى جسمها بالحبوب الحمراء إذا نامت على المخمل ـ وتتغطّى ببطانيّة ولا تضع تحت رأسها مخدّة: تطوي يدها تحت رأسها وتنام على يدها). أنا أعبر في الممرّ خارجًا من البيت وأراها بطرف عيني في جلستها تلك، وتضمّ يديها بين ركبتيها. إلى أين تنظر؟ تنظر إلى جوليا وخطيبها أم إلى صورة الأخ الصغير، لا أعرف.

على التلفون، وهي تحكي وأنا أسمعها تمزج العربيّة بالفرنسيّة والإنكليزيّة، أردت أن أسألها هل تتذكّر كيف كانت «تشرشحني» معها على أبواب السفارات: كانت هناك فترة في النصف الثاني من الثمانينات نستيقظ فيها مع صياح الديك ونشرب القهوة ونأخذ قنّينة ماء ونخرج (أنا ونجوى فقط) وندور على السفارات. يوم الفرنسيّة ويوم الكنديّة ويوم الأستراليّة. يوم السويسريّة ويوم الهولنديّة. يوم الإنكليزيّة ويوم النيوزيلنديّة. لم نترك قنصليّة لم نقعد أمام بابها. ويعطوننا طلبات بعد كلام قليل (مرّات من دون كلام) ونملأ الطلبات ونقدّم الطلبات ويعطوننا مواعيد خياليّة. ومرّات نحصل حقًّا على مقابلة. ثم لا يحدث شيء. يأخذون رقم التلفون أو لا يأخذون الرقم. ولا يحدث شيء. وعندما قبلوا في السفارة الأستراليّة طلب نجوى غيّرت رأيها. أنا سألتها لماذا وقفنا إذًا في كل تلك الطوابير؟ لماذا أكلنا كل تلك الشوكولا السائلة؟ وهي قالت: «الآن نعرف أنّ الخروج ممكن».

الخروج ممكن؟ هل أخرج يومًا؟ مازلت واقفًا هناك، في المطبخ القديم في بيت الأشرفيّة، أرفع شوكة مربّى اللقطين إلى فمي وأطبق فمي على الشوكة: المادّة الكثيفة تذوب في فمي وأنا أغمض عينيّ والذكريات غير المفهومة تطفو من الأعماق (ماذا يوجد تحت؟ حدائق أم مستنقعات؟ بحر أم يابسة؟)، الذكريات تطفو، صور لا أدري ماذا تكون، لا أدري من أين تأتي، ماذا يحدث لي، لا أعرف ما الذي يحدث. تذكُرُ تلك المرأة، الوجه المدوّر بالشعر الأشقر المبلول، تذكر ذلك الوجه الأصفر؟ ألم أقل لك إنّني وأنا نصف نائم في الملجأ رأيت قدّاحة تشتعل في الظلام

ورأيت تحت الضوء الأصفر (تحت الدائرة الصفراء التي تشبه الهالة) وجهًا أصفر؟ تذكر؟ في المنامات، وبعد ظهور جورج صادر في بيتنا بزمن قصير، صرت أرى تلك المرأة ولا أعرف لماذا أراها. من تكون؟ لماذا أنظر إليها هكذا؟ لماذا تهمّني إلى هذا الحدّ؟ لم تكن وجهًا أعرفه من الحيّ! باستثناء تلك الذكرى الغامضة من تلك الليلة في الملجأ لا أذكر أنّني رأيت وجه تلك المرأة! هل رأيتها في المنام تلك الليلة، وأنا أنام بين أمّي وأخواتي وأتغطّى بشرشف؟

في الجامعة، وأنا أدرس القدّيس أوغسطين (هذه المادّة أخذتها في الفصل الثاني؛ أيضًا اختياريّة) وأقرأ أنّ الذاكرة قصر كثير الغرف وتحت القصر دهاليز وأقبية فكّرت في أمّي قاعدة في الصالون، ترفع ساقيها على الطاولة الصغيرة (نبعد منفضة أبي الحجر إلى خارج الصالون؛ لا ضرورة لها: خطيب جوليا لا يُدخّن). رأيت أمّي وعلى ساقيها شرشف أبيض وعلى الشرشف أغصان طرّزتها جوليا بالخيط الأخضر. ماري تدخل حاملة أكواب الليموناضة على صينيّة وأمّي ترنو إليها بنظرة الحبّ التي تغمر العالم. تقعد ماري جنب أمّي؛ جوليا وخطيبها في الجانب الآخر يشربان الليموناضة (الكوب عرقان وبارد، وجوليا تلفّ كوب خطيبها بورقة كلينكس)؛ وماري هنا تغمس كعكة في الليموناضة وتضع الكعكة في الصحن أمام أمّي، على الحافة الخشب لمسند الكنبة.

أخبرتك عن المنامات المحيّرة: في تلك الفترة (بينما جوليا

تتجهّز لعرسها) بدأت تُعكّر ليلي سلسلة غريبة من المنامات. المنام نفسه يتكرّر وفي كل مرّة يتغيّر تفصيل صغير. يستمرّ هذا وقتًا ثم يأتي منام جديد. وهذا أيضًا يتغيّر من مرّة إلى أخرى. وأحيانًا يرجع المنام القديم أو يمتزج المنامان. أو أرى منامًا ثالثًا يمزج المنامين معًا، أو لا يمزجهما، يبدو جديدًا تمامًا، لكنّني بعد ذلك أفكّر أنّه مثل المنامين السابقين. ليس سهلاً عليّ الآن أن أتذكّر كل التفاصيل. مع هذا أتذكّر عددًا من تلك المنامات والكوابيس. وأكثر ما أذكره هو الأثر الذي تركته في نفسي. أكثر ما أذكره هو الإحساس بالاضطراب والارتباك وعدم الفهم.

لم أعرف ماذا يحدث. صرت أرى كوابيس تُسمّم نهاري. تعرف ماذا أرى؟ أرى أبي يهاجمني بسكّين. أبي أم إيليّا أم نجوى؟ لا أعرف. يتغيّر الوجه بينما الشخص يهجم عليّ. لا أعرف لماذا أُهاجَم، أنا لم أفعل شيئًا! في مرّة أخرى أكون على سطح البيت أو سطح المدرسة وأرى وجه إيليّا يظلم وهو يحمل عن الأرض شيئًا ثقيلاً (لا أعلم ماذا يكون لكنّه ثقيل) ثم يرميه عليّ. يقصد قتلي وأعجز عن الحركة. أحاول أن أبتعد لكنّني ثابت في الأرض. أستيقظ مذعورًا وقلبي يضجّ قبل وقوع الكارثة: لا أُقتل في هذه الكوابيس لكنّني أكون على بُعد شعرة من الموت.

في المقابل أرى «منامات» لا كوابيس، لكن هذه أيضًا تربكني: أرى بابًا خشبًا طُلي بالأخضر. الباب أخضر وعلى الباب مطرقة نحاس تشبه مخلبًا. أسمع صوتًا أليفًا (في المنام يكون أليفًا، عندما أستيقظ وأحاول أن أتذكّره لا أقدر أن أتذكّر) يكرّر اسمًا في أذني

ويطلب منّي أن أفعل شيئًا. في المنام أعرف أنّ الصوت يلفظ اسمي (لكنّه لا يقول «مارون»، في المنام أُسمّى اسمًا آخر، وأعرف أنّه اسمي، ولا يكون هذا غريبًا، لكن عندما أستيقظ لا أتذكّر الاسم). وفي المنام أحدس ماذا يطلب الصوت الأليف: يريدني أن أمدّ يدي وأن أقبض على المطرقة وأن أجذبها صوبي ثم أن أفلتها من بين أصابعي. أعرف ذلك وفعلت ذلك من قبل وأقدر الآن أن أفعله. في المنام أسمع طرقة النحاس، وأستيقظ.

«كانت جوليا عندنا تزيّن شجرة الميلاد عندما ماتت أمّي. أذكر الأجراس تُقرع. اجتمعنا كلّنا في عطلة الميلاد 1985. لم نكن نعلم أنّ أمّي ستفارقنا ولم نكن نعلم أنّه اجتماعنا الأخير. أذكر جوليا تحوم حول الصنوبرة الخضراء التي جلبها إيليّا (عالية، تاجها يلمس السقف) وتتناول من ماري الطابات الملوّنة. أذكر بشرتها الصافية (كانت حبلى). أذكر ماري بثوبٍ أزرق، حافية على السجادة، تنحني على كيس جنفيص نسمّيه «كيس بصل» (البنّي بطاطا، الأحمر بصل). أذكر ليليان تمشّط شعر الكلب الفرنجي الذي جاءها هديّة؛ ونجوى في غرفة السفرة، مطمورة بمسابقات أجّلت تصحيحها حتى الساعة الأخيرة. أذكر صوت الراديو (الراديو الخشب القديم الذي حفرت قاعدته أثرًا لا يُمحى على «الدرِسوار») عالي الضجّة، ونجوى تنادي على ليليان، وليليان لا تسمع، وجوليا تضحك وهي تصارع أغصان الشجرة.

أذكر إيليّا يدخل ويخرج وجوليا تقول له «ممنوع التدخين»، والكلب الضئيل يُصدر صوتًا يشبه مواء القطط. أذكر أمّي تنادي عليّ من غرفتها (أبي لا يرجع قبل المساء؛ مازلنا في ساعة الظهيرة). أدخل إلى غرفتها وأرى كوب الماء وقع على الكومودينة. تقول لي إنّه فارغ، شبه فارغ، وأنا أرفعه وأمسح

بالكلينكس ما سال. أجلس جنبها على السرير. تمسك بيدي وعندئذٍ فقط أنتبه أنّها ليست بخير.

أسألها هل تشعر بالتعب؟

ـ أنا سأموت الآن.

أذكر ضجّة الراديو، أذكر ضجّة أخواتي في الخارج، أذكر خبطة باب البيت وصوتًا يعلو. بعد ذلك يتراجع ضجيج الراديو وتموت الأصوات. أبي يدخل الغرفة.

لا أعرف إلى اليوم كيف عرف أنّها تطلبه وهو في مكتبه في المرفأ.

أفكّر كثيرًا في الأشياء الغريبة التي تحدث للإنسان. أنا أثناء الدراسة في «القلبين الأقدسين» سمعت قصّة تشبه قصّتي ولم أعرف. قبالة باب المدرسة صفّ دكاكين: دكّان يبيع «السحبة» وأنواع المرطّبات والسكاكر (في إحدى الفترات وضع صاحب الدكّان صاج فلافل وصار يبيعنا سندويشات فلافل). ودكان جنبه لا أذكر ماذا يبيع لكنّه الوحيد في تلك المنطقة الذي نجد عنده شوكولا Lion Bar، صاحبه أعمى ونراه يعزف على العود وأكثر من مرّة حاولنا أن نغشّه (نعطيه ورقة بدلاً من الليرة، أو نعطيه ليرة ونقول إنّها ورقة خمس ليرات) وهو يضحك ويضربنا، لم يكن يزعل. أبعد من هذين الدكّانين دكّان الزهور والأسماك. كنّا نقصده لا لننظر إلى الزهور والأسماك لكن لنتأمّل البنات فيه. صاحبه أصله من طرابلس، من آل خضر، وأظنّه من أقارب المطران خضر. عنده سبع بنات: كل بنت أجمل من أختها. وكلّهنّ يتشابهن

في الشكل. حتى الصغرى. مع أنّ الصغرى ليست حقًّا أختهنّ. الرجل يُدعى نديم خضر وعندما وجد الطفلة وضع إعلانًا في الجرايد ووضع رقم هاتف كي يتصل به «من يعرف عنها شيئًا». اسمعْ كيف عثر عليها: كان يسكن في الضبيّة، وعندما احترق المخيّم أثناء «حرب السنتين» كان على الطريق راجعًا إلى بيته، إلى زوجته وبناته. الرصاص يشرقط على الحيطان ويتكسّر على الرصيف وهو يكافح قاطعًا الدخان. وصل إلى البناية حيث يعيش. بينما يدخل ظلمة المدخل ناجيًا بنفسه من الرصاص الطائش وشظايا الهاون وانفجارات الزجاج تعثّر بسلّة. كانت الطفلة ملفوفة ومتروكة في سلّة، مثل السلّة التي نضع فيها الخضر والفواكه. أخذها الرجل وربّاها مثلها مثل بناته. كنّا نراها قاعدة في الدكان مع أمّها، بين أحواض السمك الملوّن، ولا نصدّق: كأنّها أمّها، ولكن أصغر منها. تشبه أخواتها كأنّها منهنّ. ولا أعرف هل تعرف أو لا تعرف: تعرف أنّ أهلها ليسوا أهلها؟

بعد سنوات طويلة تذكّرت تلك القصّة من أيّام المدرسة وحاولت أن أتذكّر ماذا فكّرت (ماذا شعرت) عندما سمعت القصّة للمرّة الأولى. لم أقدر أن أتذكّر. كل ما أذكره الوجوه الحلوة والأسماك الملوّنة. الأحواض الشفّافة وباقات الزهور. قصّتها تشبه قصّتي؟ أدقّ فارق بين قصّتين يكفي كي تختلفا. هنا، حيث أضع إصبعي، هنا دخلت الرصاصة. لو زاحت سنتمترًا إلى تحت كانت ثقبت قلبي. (أعرف رجلاً يعيش الآن في قرية تبعد عشرين كيلومترًا عن ملبورن، اسمه غير مهمّ، كان صديق إيليّا لكنّه ترك لبنان سنة الـ 87 ومنذ ذلك الحين لا يغادر أستراليا. متزوّج أستراليّة وعنده أولاد

وينحت أقنعة خشبيّة على الطريقة البدائيّة لسكّان أستراليا الأصليين، يعرض أعماله والناس يشترون منحوتاته وهذا يكفي كي يعيش. زوجته كانت تقطع تذاكر للقطارات لكنّها الآن تركت الوظيفة وتبقى في المزرعة معه وتربّي الأولاد. عندهم ماشية أيضًا وطيور. إيليّا، عندما سافر إلى أستراليا قبل سنوات، ذهب وزاره في المزرعة الضائعة وسط البراري. أنا أتذكّر هذا الرجل قاعدًا على سطح بيتنا بعد «حرب الجبل» لكن قبل موت أمّي. لا أعرف متى بالضبط، بين 1983 و1985، أذكره يُخرج من جيب «الفيلد» العسكري كيسًا قماشًا يشبه بيت النظّارة، وله ربطة جلد. أذكره يفكّ الرباط وهو يداري الكيس بين أصابعه كأنّ في قلب الكيس أشياء حيّة: فراشات مثلاً، أو نحل، أو زيزان، لا أعرف. هكذا كانت حركته، حركة تلك الأصابع. أذكر الولد الذي كان أنا ـ كم كان عمري؟ 12؟ 13؟ ـ أذكر الولد يلتفت وينظر إلى أصحاب أخيه الكبير وقد حلّ عليهم الصمت. كان يفتح الكيس وعيونهم معلّقة على الكيس. فتحه ثم قلبه على الكفّ المبسوطة: رأيت «كللاً» زجاجًا، ظننت أنّها «كلل»، طابات زجاج صغيرة غريبة الألوان لا أدري لماذا يجمعها مقاتل. عندما قال أحدهم إنّ هذه كلّها من «شاتيلا» لم أفهم ماذا يقصد).

لماذا أخبرك هذه القصّة؟ كيس مملوء عيونًا بشريّة! لماذا أخبرك هذه القصّة؟ لأنّها جزء منّي. في الجامعة وأنا أدرس هيراقليطس استغربت هذه الجملة: «شخصيّة الإنسان قدره». ماذا يقصد؟ أليس العكس صحيحًا أيضًا؟ ألا يصنع القدر شخصيّة الإنسان؟ كل تلك الصُدف التي تقع لنا في مجرى الحياة ألا تُشكّلنا؟ لكنّه يقصد شيئًا

آخر. أنا أفكّر في هذه الأشياء وعندما أفكّر فيها تعطيني عزاء.

بعد الدفن رجعنا إلى البيت. ونحن نصعد الدرج اتسخ الدرج من دعساتنا: هذا وحل من المقبرة. سبب غامض حجب من ذاكرتي تفاصيل الدفن: أنا كنت هناك لكنّني لا أذكر من الدفن شيئًا. كل ما أذكره إشارة من يد إلى بناية بعيدة شاهقة العلوّ: مدفن العائلة يُجاور خطّ التماس؛ أثناء تبادل القنص بين «الشرقيّة» و«الغربيّة» المكان غير آمن. عائلات كثيرة لم تعد تدفن هناك، صاروا يدفنون في مار متر، مع أنّها في الأصل ليست مقابر الطائفة.

دفنا أمّي جنب أخي الصغير وعدنا إلى البيت. أختي ماري مضت في خطٍّ مستقيم إلى المطبخ ووضعت الطبخ على النار. أخرجتْ طنجرة من البراد ووضعتها كما هي على النار ثم فتحت حنفيّة الماء على السطل وأخذت دواء الجلي (مسحوق أبيض فيه حبّات حمراء) وأخذت عصا الممسحة والممسحة ومكنسة تستخدمها للشطف فقط وليس للكناسة وخرجت إلى صحن الدرج. نظرت إليها ثم نظرت إلى وجه آخر ينظر إليها فلم أجد في البيت أحدًا. أين اختفوا؟ قبل لحظة كانوا هنا! أمّي ماتت والعائلة تبعثرت.

وقفت في باب البيت أنظر إلى ماري ترشّ برش الصابون (هذا برش صابون؟) على الدرج. صوت الماء يخبط البلاط. وماري تتخلّص من مشّايتها (هذه مشّاية؟) ورغوة كثيفة تفور أمام المكنسة. نظرت إلى الدرج الذي يصعد إلى السطح ورأيت دعسات ووحلاً:

من صعد إلى فوق؟ إيليّا؟ أبي؟ إحدى أخواتي؟ سمعت صوتًا وراء ظهري، في إحدى الغرف. من أقفل باب تلك الغرفة؟ لماذا يُقفل الباب؟ أمّي ماتت والعائلة تبعثرت. نزلت على الدرج. ماري قالت «انتبه». كانت خائفة أن أزلق على الصابون؟ كانت خائفة أن أوسخ الدرج؟ مشيت لصق الحائط، ونزلت الدرج درجتين درجتين، ولم أزلق على الصابون، وخرجت إلى الهواء البارد. أذكر الهواء اللاسع، والسماء النقيّة الزرقة وريح الشمال تنفخ. . . في نهاية الشارع حيث شجرة الكينا القديمة رأيت ولدين يتقاذفان كرة. وقفت ونظرت إليهما. نظرت إلى الكرة تذهب وتأتي، تذهب وتأتي، وشعرت بيدٍ لامرئيّة تغور في زلعومي، تقتحم صدري وتقبض على مصراني ثم تشدّ المصران مثل كيس اللبنة وتسحبه من بين أسناني. لم تكن تلك اللحظة الأقسى. ليلاً بقيت ممدّدًا على ظهري مفتوح العينين. تغطّيت ببطانيّة صوف وفوق البطّانيّة اللحاف ومع هذا اصطكّت أسناني. برد فظيع استحكم عليّ. الآن عندما أتذكّر الليلة الأولى ـ وأمّي ميتة ـ أتذكّر ذلك البرد. مع أنّني ـ وهذا يبدو غريبًا ـ لم أهتمّ بالبرد في ذلك الوقت.

أظنّ أنّني غفوت لحظة. غفوت لحظة لأنّني عندما فتحت عينيّ ونظرت إلى الكنبة حيث تنام نجوى لم أجد أحدًا. كان الضوء الخفيف يتسرّب عبر الزجاج المحجّر، زجاج البوّابة التي ركّبناها بين الصالون والممرّ بعد أن كسر إيليّا الباب القديم. رأيت اللحاف الذي تتغطّى به مكوّمًا أسفل الكنبة. أصغيت في الليل ولم أسمع صوتًا. خارج البيت عبرت سيّارة. قمت في الليل أبحث عن أبي. لم أجده. ذهبت إلى الغرفة حيث ينام إيليّا. لم أجد إيليّا في

فراشه. أين ذهبوا؟ رأيت ضوءًا تحت باب الغرفة التي نسمّيها «غرفة جوليا» مع أنَّها تزوّجت الآن وخرجت من البيت. دفعت الباب فرأيتهم على السرير: إيليّا وماري وليليان ونجوى. اقتربت بلا صوت وجلست بينهم. على المخدّة رأيت أغراض أمّي: مسبحة الصلاة. الساعة الفضّيّة الميناء بالرباط الجلد. وسلسلة الذهب الرفيعة بالقلادة البيضاويّة التي تضمّ صورتين (صورة أبي وهو شابّ طويل السالفين وصورة المرحوم مارون).

بعد سنوات، عندما اكتشفت أنّني لست أنا، تذكّرت تلك اللحظة من عطلة الميلاد 1985: أفتح الباب وأرى تحت اللمبة المضاءة إيليّا وماري وليليان ونجوى قاعدين على السرير.

ماتت أمّي فزاد أبي المسافة بينه وبيننا ذراعًا ثانية. كان من قبل بعيدًا؛ غابت أمّي فصار أبعد. لم يحضر عرس ماري. بارك زواجها وقال للعريس «أنت ابني الآن». لكنّه قال إنَّه تعبان ولا يتحمّل بهجة العرس. لم يحضر العرس وماري حزنت وبقيت وقتًا لا تأتي وتزورنا ثم جاءت وزارتنا: باست أبي على رأسه وأخذت يده وقبّلت أصابعه. هو ضمّها إليه وسألها عن صحّتها.

نجوى هي التي قالت إنَّه يبني الحيطان ويقعد بينها. كانت تصعد إلى السطح لتقعد معه فيهرب منها إلى العصافير: لحظة يضع للعصافير حَبًّا ولحظة يُغيّر ماء المشارب. لحظة يُنظّف الأقفاص ولحظة يُبدّل أمكنتها. كان يهرب. أصحابه من أيّام المرفأ وما قبل المرفأ كفّوا عن زيارته عندما لاحظوا وجومه. كانوا يسألونه فلا يجيب. ويقوم ويتركهم وحدهم مع ليليان في الصالون.

الوقت الذي فصل بين جنازة أمّي وعرس ماري أتذكّره الآن غائمًا. في تلك الفترة استقالت نجوى من عملها في «زهرة الإحسان» واشتغلت وقتًا قصيرًا في «الثلاثة أقمار» ثم استقالت من هذا العمل أيضًا. كانت تستهلك كمّيَّة من المهدّئات. ذات مساء، ونحن نشاهد على نشرة الأخبار صورًا من «حرب المخيّمات» المشتعلة في «الغربيّة»، تناقشتْ نقاشًا عنيفًا مع ليليان (طلبت من ليليان أن تغيّر القنال؛ ليليان لم تغيِّر القنال) ثم قامت وخبطت التلفزيون (أطفأته وهي تخبطه مرّة تلو أخرى ثم نزعت الشريط من الحائط وضربته على البلاط) وخبطت الباب الموارب وخرجت من الغرفة. بقيت وحدي مع ليليان أمام التلفزيون المطفأ. أنا فتحت فمي وقلت شيئًا. لا أدري ماذا قلت. لعلّني قلت إنَّ نجوى تتعب وعلينا أن... لا يهمّ ماذا قلت. لا أظنّ أنَّ كلماتي كانت السبب في ما حدث. هذا ما حدث: استدارت ليليان صوبي وأمرتني أن أخرس وألاَّ أتدخّل. هل أخبرتك عن الوجه الذي يُبدّل ملامحه ويتحوّل في رمشة عين من وجه ملاك (لأنَّ ليليان أخذت عن أمّي جمالها) إلى وجه شيطان؟ كلماتي لم تكن السبب.

بعد الـ 85 ضاق البيت. اختفت أمّي وتبعثرنا وضاق البيت. إذا رأيت سيجارة أبي توّج على الشرفة أصعد إلى السطح. الهواء بارد وهواء الليل يلسع لكنّني أصعد إلى السطح. إذا كانت الشرفة خالية أخرج إلى الشرفة: يكون أبي في هذه الحال محتلاً السطح. كنّا في ذلك الوقت نتبادل المواقع كأنّنا في أدوار حراسة. إيليّا لم يشاركنا «اللعبة». موت أمي أخرجه من البيت. «حرب الجبل» كانت الخروج الأوّل غير النهائي. بعد أسابيع من جنازة أمي احتلَّ بيتًا

في فرن الشبّاك. قال إنَّه استأجر البيت لكنّنا نعرف رفاقه وكلّهم يحتلّون شقق مهجّرين في عين الرمانة وسنّ الفيل وفرن الشبّاك.

كلّهم يخرجون وبدل أن يتّسع البيت بات ضيّقًا. أذكر ماري تقف على شرفة المطبخ الضيّقة وتنتظر خطيبها: شرفة المطبخ تطلّ على الطريق، وقبل أن «يُزمّر» خطيبها (معه سيّارة بويك، بوقها يُرسل ذعرًا في العصافير) تكون صارت على الدرج. تخرج أوّل المساء ولا ترجع قبل نصف الليل. لا أحد يقول لها شيئًا. ليست جوليا. اختلفت الأيّام. أبي كأنَّه ليس في البيت. نجوى قالت «لم يعد يأكل». ظلَّ أبي يأكل لكنّه صار يتجنّب الجلوس إلى الطاولة. صار يأكل أقلّ. يأكل واقفًا إلى المجلى، أو يأخذ صحن الطبيخ ويخرج إلى الشرفة أو يطلع إلى السطح: العصافير حجَّته. ولا يقول شيئًا. ثَقَبَ زنّاره ثقوبًا إضافيّة. البنطلون اتسع على خصره. عادة لبس الثياب منذ الصباح الباكر لم يُبدّلها. ظلَّ يكره البيجامة ولا يرتديها إلاَّ لحظة النوم. طوال الوقت لا يُرى إلاَّ لابسًا البنطلون والقميص والكنزة المفتوحة الأزرار فوق القميص. لكنّه فقد أناقته. كل ثيابه تهدّلت عليه: كأنَّه يلبس ثياب شخص آخر.

جورج صادر (صهر العائلة) هو الذي ساعد نجوى على السفر إلى فرنسا. أنت تذكر الثمانينات وكيف كان الدولار يلعب وكيف صارت الليرة على الأرض. الناس يُنكبون في معيشتهم ورواتبهم ومدّخراتهم وصهرنا صار فاحش الثراء: الصيرفة ازدهرت في تلك الفترة وهو غدا فوق الغيوم. ساعد نجوى: اتصل بمعارف وأقارب له في باريس، وخلال أيّام وجد لها عملاً. لكن قبل أن يحدث

ذلك (قبل أن تتدخّل جوليا وتطلب من زوجها الاتصال بباريس) تعاركت نجوى مع إيليّا.

لم أعرف التفاصيل. أعرف أنَّ نجوى كانت على علاقة برجل متزوّج. وأعرف أنَّ إيليّا لم يكن على علم بهذه العلاقة ثم عَلِم صدفة من أحد رفاقه «وطار عقله». هذه العبارة الأخيرة هو الذي استخدمها بعد ذلك وهو يُبرِّر أمام جوليا وماري ما فعله: لم يضربها، لا، لكنّه شتمها وقال لها أشياء لم تتحمّلها (أنا يقولون أختي شرموطة، أنا يا. . .). أسمعها كلامًا. عندما تصدّت له دفعها في كتفها (لم أكن موجودًا لكن أقدر أن أتخيّل المشهد). وهدّدها.

ـ أنتَ لست أبي.

لم تسكت له. لطم الحيطان وحطَّم المزهريّة التي أذكرها طوال حياتي تُزيّن طاولة السفرة وصفع الباب وخرج من البيت. نجوى قالت إنَّه لم يؤذِ بزلزاله إلاَّ أصابعه والكنارات. قالت ذلك لكنّني سمعت ريقها وهي تبلعه.

بعد أسابيع قليلة جاء وباس رأسها واعتذر. لا أعرف ماذا قال في أذنها. لكنّني رأيته وهو يعانقها وهي تحاول التملّص من ذراعيه. ثم تركَتْهُ يعتذر لها. وأنا خرجت وبقيت في المطبخ حتى سمعت إيليّا ينادي عليّ.

تأخّر سفر نجوى قليلاً بسبب المعاملات. تجهيز الأوراق استغرق وقتًا ونيل الموافقات استغرق وقتًا والحصول على التأشيرة استغرق وقتًا لكن كل ذلك بات جاهزًا بأسرع ممّا تخيّلت: اكتشفت بينما نجوى تحزم حقائبها وتخبرني أنَّ خطّتها هي ألاَّ ترجع إلى

«هذا البلد المنحوس» يومًا، اكتشفت أنَّها أقرب أعضاء عائلتي إليّ. لم أعرف ذلك إلاً وهي تنشر حقائبها المفتوحة على أرض الصالون وكنبات الصالون وتطوي الثياب وترصف الثياب. . . أذكر الضوء البرتقالي للغروب (في تلك الفترة أبعدنا أكياس الرمل عن النوافذ موقّتًا وتنفّس البيت) أذكر اللون الأحمر يملأ الصالون ويغمر الحقائب ويرتفع كالماء حتى يبلغ الصورة.

حجزتْ على مركب يبحر بصورة منتظمة من جونيه إلى قبرص. كل «الشرقيّة» كانت تسافر هكذا في ذلك الوقت لأنَّ الطريق إلى مطار بيروت مقطوعة. المطار في «الغربيّة»، وأسهل عليها أن تقطع البحر إلى مطار لارنكا. أذكرها تقفل الحقائب وتربط على المسكة ربطة حمراء صغيرة كي ترى الحقيبة وتعرفها عندما تصل إلى باريس. أذكرها تُخرج عن «الدرِسوار»، من بين الأطباق والفناجين والصواني، فنجان شاي تحبّه، عليه رسوم صينيّة. أذكرها تلفّ الفنجان بجريدة قديمة وتتمهّل وهي تلفّه. أذكر موسيقى تجيء عبر الشبّاك وأذكر الحقيبة الأخيرة التي ظلّت مفتوحة حتى اللحظة الأخيرة، أذكر الحقيبة مملوءة بضوء الغروب: لم أكن أشعر بالحزن. شعرت بالسعادة من أجلها.

شعرتُ بالسعادة؟ أبي لوَّح لها واقفًا على الشرفة بين الكنارات وهي تطلع إلى الرانج الأسود الجديد الذي اقتناه إيليّا. كانت السماء ملبّدة بالغيوم لكنّ الشمس بانت لحظة وأنا رأيته فوق، بين العصافير المنفوخة الريش، كأنّه يبتسم. هل كان يبتسم؟ قلت لك إنَّ الذاكرة تغشّ الإنسان.

أذكرنا في الرانج، وأذكر نجوى تلتفت لحظة وتنظر من فوق الحقائب وعبر الزجاج القاتم إلى الشبح الباقي على شرفة الكنارات. بعد ذلك لن ترى نجوى أبي. عندما مات لم تأتِ إلى جنازته.

رانج إيليّا الذي أوصلنا إلى جونيه في ذلك اليوم الملبّد بالغيوم حصلت عليه ليليان هديّة عندما قُبلت في الجامعة اليسوعيّة. ليليان درست في اليسوعيّة بمنحة، وأنا سأدرس في الأميركيّة بعد ذلك بمنحة أيضًا. أنا عندما قدّمت طلب الدخول إلى «الأميركيّة» كان ذلك على أساس أن أدرس في فرع الجامعة الأميركيّة في «الشرقيّة». لم أكن أعلم عندئذٍ أنَّ الحرب ستنتهي فجأة وأنَّ فرع «الشرقيّة» سيلغى وأنّني سأجد نفسي طالبًا في «الغربيّة». قدّمت الطلب وعملت امتحانات الدخول. كانت ثلاثة امتحانات. الأوّل يُسمّى أس. كيو S.Q، وهذا علوم ورياضيّات. الثاني يُسمّى E.E، وهذا لغة إنكليزيّة. والثالث «مهارات» وهذا يتقدّم إليه فقط من يختار كلّيّة الهندسة. قدّمت هذه الامتحانات قبل أن تنتهي سنتي الثانويّة الأخيرة. أكثر من مرّة تعطّلت المدرسة في تلك الفترة. قلت لك إنَّ الحياة بعد موت أمّي كانت تشبه المشي في الضباب؛ هل قلت هذا؟ عندما أتذكّر عرس ماري مثلاً أتذكّر ضبابًا كثيرًا، وأتذكّر ناسًا يرقصون ولا أعرف لماذا يرقصون. وأتذكّر السيّارات المزيّنة أمام الكنيسة. وأتذكّر الزهور (رائحة الزهور الخانقة). وأتذكّر المصوّر الذي يحمل كاميرا فيديو ويطلّ بالكاميرا أوّلاً ـ ثم برأسه ـ من سقف السيّارة المفتوح. وأتذكّر إيليّا مع أصحابه ـ موكب كامل من الرانجات الزيتيّة والرانجات الفضّيّة والرانجات

السوداء ـ وأتذكّر فتيات صغيرات يحملن صواني البقلاوة والشوكولا . . . أتذكّر أولادًا ينتعلون صبابيط لمّاعة ويربطون ربطات عنق سوداء. أتذكّر ماري في ثوبٍ ينتشر كالغيمة البيضاء، ينتشر كالضباب الذي ظلّ يطاردني من السيوفي إلى الكنيسة إلى البيت الغريب حيث ستعيش ماري بدءًا من اليوم، وإلى السيوفي من جديد. ماذا كنت أشعر إذًا؟ لم أكن أشعر شيئًا. ماذا شعرت على رصيف جونيه بينما المركب الطويل يتحرّك والبالونات الملوّنة ترتفع إلى السماء (من يُطلق هذه البالونات الآن؟). . . ماذا شعرت عندما سألتني ليليان، بعد أن بقينا وحدنا أنا وهي مع أبي في البيت، ماذا شعرت عندما سألتني هل عندي صاحبة في المدرسة؟

سبحت في الضباب سنوات وطوال الوقت كنت ألبس الجاكيتة الجلد السوداء التي اشتراها لي إيليّا في إحدى رحلاته القصيرة إلى البيت أثناء معارك الجبل. عندما جرّبتها للمرَّة الأولى ووقفت أمام المرآة على الدرج (على درج السطح توجد خزانة قديمة؛ على باب الخزانة مرآة) سمعته يضحك ويقول إنّني صرت أصغر حجمًا أثناء غيابه عن البيت. مرّت السنوات وجسمي ضاعف حجمه وصرت أملأ الجاكيتة السوداء.

تشقّق الجلد الأسود وأنا أسبح في الضباب. كنّا في المدرسة نستخدم القدّاحات على الجاكيتات كي نعرف الجلد الأصلي من الجلد المزوّر. لا أعرف كيف مرّت تلك السنوات عليّ، أشعر أنَّ قطعًا كاملة منها سقطت خارج ذاكرتي من دون أن أنتبه: كأنّها وقعت في الضباب الكثيف، وأنا بينما أسير إلى أمام وأحاول أن

ألتفت وأرى أين وقعت، أنا بينما أحاول أن أظلّ موجودًا، فقدت تلك القطع، ولعلّ هذا هو كل ما أقدر عليه. الآن إذا سألتني ما الحقيقي وما المزوّر من ذكرياتي، أشعر بالخوف: أخاف ألاّ أميّز، أخاف أن أضيع بين شخصين.

الاشتباكات في قلب «الشرقيّة» عطّلت المدرسة أكثر من مرّة. شعرت أحيانًا أنّني لن أصل إلى الجامعة، أنّني علقت في هذه الدراسة الثانويّة إلى الأبد. لم أكن أريد أن أعلق في هذا المكان. في المقابل لم أعرف أين أذهب. أنا لست إيليّا. كنت أنظر إلى إيليّا يتاجر بالسيّارات ثمّ بوكالات غامضة ثم بالسيّارات مرّة أخرى وأشعر بعجزٍ مخيف: أشعر أنّني ضعيف. أخذني مرّة كي أرى بيته في فرن الشبّاك. على الطريق إلى هناك اشترى فلافل من دكان واشترى فراريج محمّرة من دكان آخر واشترى «شيئًا نشربه» من دكّان ثالث. كان ينزل من الدودج وهو يلتقط مسدّسه وعندما يرجع يرمي الأكياس على المقعد الخلفي ويضع مسدّسه على أرض السيّارة. كلّما نزل من السيّارة يضع المسدّس تحت الحزام. فكّرت أنّنا لن نصل إلى بيته. ظلّ يأخذ الزواريب، إلى اليمين، إلى اليسار... سألته هل أضاع البيت؟ ضحك وضرب يده على المقود. وقال إنّه يحبّ عندما أكون معه ويشتاق إلى جلساتنا. سألني لماذا لا أسكن معه؟ وأنا سألته: «لكن أين بيتك؟» وهو ضحك مرّة أخرى. وسألني هل أذهب إلى السينما؟ وسألني هل عندي صاحبة؟

أنطوان تنّوري قال لي عندما انتهت الرقصة:

ـ She seems interested.

كنّا، أنا وهو، نستعدّ معًا لامتحان الـ E.E ونحاول قدر المستطاع أن نتبادل الكلام بالإنكليزيّة. هذا، في حفلات الأشرفيّة الراقصة، فترة «حرب الإلغاء»، كان شيئًا طريفًا. كان، بعد كل جملة إنكليزيّة، يضحك ويُصلح النظّارة على عينيه. في تلك الحفلة صار جميع الحاضرين يتكلّمون بالإنكليزيّة ويضحكون. أنا لم أنتبه أنَّها مهتمّة بي إلاّ عندما قال أنطوان ذلك. كنت عمومًا لا أنتبه ولا أظنّ أنَّ أحدًا ـ هي أو غيرها ـ يمكن أن يهتمّ. أقدر أن أقول إنَّني لم أنتبه لأنَّني كنت في مكان آخر. أين كنت؟ لا أعرف. أثناء الرقصة الثانية، والموسيقى هادئة، تكلّمتْ في أذني. تركتْ الإنكليزيّة للآخرين وأخبرتني بالفرنسيّة أنَّها تحبّ كيف أمشي، دائمًا تراني أمرّ في الطريق ودائمًا تحبّ طريقتي في المشي. أنا قبل ذلك لم يقل لي أحد إنّني أمشي بطريقة تخصّني. لم أكن أعرف هذا.

أذكر كنزتها «الموهير» البتروليّة؛ أذكر الوبر الناعم. بعد ذلك سأقول لها دائمًا إنّني عندما رأيتها ترقص وهي تلبس تلك الكنزة شعرت بنقطة تتحرّك في قلبي. لم أقل لها إنّني تعلّقت بها عندما شدّتني إليها ونحن نرقص. ضغطتني على جسمها. أحسست بنبضة قلبها، أحسست بالمادّة الصلبة للجسم غير الخائف، وفكّرت أنّني للمرّة الأولى لا أشعر بالخوف. مع أنّني كنت خائفًا. هل كان خوفًا؟

بعد أسابيع، ونحن في السينما ويدها في يدي، تذكّرت إيليّا

يضحك في الدودج ويضرب «التابلوه» الخشب بيده. كانت الاشتباكات تتنقّل بين أحياء «الشرقيّة» ونحن نستغلّ كل «وقف إطلاق نار» لنشاهد فيلمًا جديدًا.

أقود سيّارتها وهي تغيّر الموسيقى في الراديو والليل يمتدّ فوق البحر. نركن السيّارة في الموقف وبانتظار موعد الفيلم نتكلّم أو نتلامس. بعد الفيلم، عندما نرجع إلى السيّارة، نتأخّر قبل أن نغادر الموقف. أذكر شجرة كثيرة الأغصان، تحتها ظلمة كثيفة. أذكر مصابيح السيّارات الأماميّة.

ماذا أخبرك بعد؟ كلّنا عرفنا هذا. وعندما أعطاني إيليّا مفتاح شقّته الجديدة في الكسليك (هذه اشتراها؛ قال إنّه يتاجر بالمحروقات الآن) وأخبرتها عن الشقّة، سألتني هل أفكّر في أخي الميت، هل أفكّر في أخي الذي خطفوه؟ وأنا قلت لها إنّني مرّات أفكّر فيه مع أنّني لا أتذكّره جيّدًا لأنّني كنت صغيرًا عندما خطفوه.

جلستْ على حافّة السرير وقالت إنّها تشعر بالعطش. كنت مرتبكًا مثلها، كنت مرتبكًا أكثر منها. ذهبتُ إلى المطبخ وفتحت البرّاد. كان مملوءًا بقناني الماء والصودا والفودكا والعصير. على الرفّ العالي أنواع لا تحصى من الجبنة. جنب البرّاد، في سلّ خيزران، قناني نبيذ.

رجعت إلى الغرفة فرأيت ثيابها على الكرسي وهي تحت الغطاء. كانت تضحك. أذكر قميصها الحرير الأزرق (قميص نصف كم) ملقيًا على ظهر الكرسي. أذكر الشعور في صدري: فراغ. كأنَّ

الروح خرجت منّي. وأنا أعانقها، ثم أدخل فيها، تراجع الفراغ وامتلأت.

تبادلنا الحبّ وكنت أتخيّل وأخطّط وأتخيّل عندما قالت لي (كنّا في الطبقة العلويّة لباتيسري في شارع مونو لم يعد موجودًا الآن؛ هي تأكل بوظة وأنا آكل جاتوه) إنّها لا تقدر أن تخرج معي بعد الآن. قالت علينا أن نفترق. قالت إنّ والدها طلب هذا. قالت إنّ والدها يعرف عائلتنا ويحترم عائلتنا لكنّه يرى أنّنا لا نناسب بعضنا بعضًا. قالت إنّها لا تستطيع أن تكسر كلمته.

بعد عمليّة أبي صار إيليّا يأتي ويزورنا كل نهاية أسبوع. في أحد تلك الأيّام وجدتني قاعدًا قبالة والدها أسمعه يحكي ولا أفهم ما الذي أوصلني إلى هذا الكرسي. هيلدا اختفت بعد الطعام، وأمّها البيضاء العليلة اختفت، وأنا بقيت وحدي أمام الرجل. حتى الخادمة اختفت. لا أريد أن أقول إنّني أكرهه. هذا كلّه جرى قبل سنوات بعيدة ولم يعد مهمًّا الآن. تكلّم عن أبي وقال إنّه يعرف تضحياته. وتكلّم عن أخي وقال إنّه يعرف أنّه أُصيب في الجبل. سكت لحظة وقال إنّه يعرف أشياء كثيرة عن عائلتنا ـ «أنت لا تعرف كم أعرف يا ابني» ـ وأنّه حقًّا يحترم بيتنا لكنّه يعرف أكثر من ابنته ويعرف أكثر منّي ما الصواب وما الخطأ. «لا هي تصلح لك، ولا أنت تصلح لها». كان هذا مضمون كلامه. ليس الكلام ما ضايقني بل تلك النظرة: مرّة أخرى أتعرّض لتلك النظرة الغريبة. لماذا ينظر إليّ هكذا؟ أردت أن أسأله: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟» لم أسأله.

هل قلت إنَّ كلامه لم يضايقني؟ هذا قديم، جرى قبل سنين، أسهل نسيانه. في تلك الفترة، بعد افتراقنا، رأيت هيلدا في المنام تسير على حافّة جبلٍ مهدّد بالانهيار. كان المكان شبيهًا بمكبّ برج حمّود للنفايات، وكنت أرى أكوام التراب تقع في البحر والتربة تزلق تحتها وهي تنادي. كانت تنادي عليّ (لكنّها لا تقول مارون) وأنا ركضت لكنّ المكبّ اختفى والبحر اختفى أيضًا.

اعتقلوا رفاقًا قدامى لإيليّا بعد اقتحام «الشرقيّة» ثم أطلقوهم. أنا وأنطوان تنّوري قطعنا خطّ التماس وهم يجرفون بقايا المتاريس بالجرّافات. انتهت الحرب وذهبنا نكتشف «الغربيّة». لم أجد مدينة سوداء محطّمة. وجدت مدينة تشبه «الشرقيّة». إذا سألتني ماذا كانت انطباعاتي الأولى في تلك الرحلة، أقول ثلاثة: اللهجة مختلفة؛ البنايات المتداعية كثيرة؛ والزحمة فظيعة. دخلنا أحياء خفنا فيها: ناس فوق ناس فوق ناس.

خلال أسابيعنا الأولى في الجامعة كنّا نتجنّب الخروج من الحرم الجامعي. ثم، تدريجيًّا، بدأنا نخرج: اكتشفنا المنطقة بين بلس والحمرا واكتشفنا كورنيش المنارة. حتى اليوم مازلت أتذكّر عربات الفستق والكاجو تعبر شارع الحمرا في الليل وفوق علب المكسّرات لوكسات الكاز بالضوء الأصفر المشعّ. فيما بعد، عندما استتبّ السلم، منعوا مرور هذه العربات الخشب في الطرقات. لماذا منعوها، لا أعرف. المفروض أن يفعلوا العكس، لا؟ أنا كنت أشتري من هذه العربات وأنزل إلى الداخلي وأنادي أنطوان: هو يسكن على الطابق الرابع، وأنا فوقه على الخامس. أنا أجلب المكسّرات وهو يجلب البيرة.

قلت لك قبل الآن إنَّ شيئًا تغيَّر فيّ عندما ابتعدت عن البيت في الأشرفيّة. كان هذا غريبًا وحتى الآن لا أدري كيف حدث. ما أتذكّره غير واضح، سنوات كثيرة مرّت، وعندما أحاول أن أخبرك الآن ما حدث في ذلك الوقت تمتزج الذكرى بما أتخيّل أنَّه ذكرى. لا أعرف إذا كنت تفهم ماذا أقصد. لا أعرف إذا كنتُ قادرًا على التعبير بوضوح. أنا أتذكّر مثلاً وقوفي على شرفة الطابق الخامس في الليل أتحدّث مع جيراني الجدد: كانوا من مناطق مختلفة ويتكلّمون لهجات مختلفة، بعضهم يدرس في كلِّيَّة الأعمال وبعضهم في الهندسة وبعضهم في الكيمياء وهكذا... اختصاصات مختلفة ويأتون من أماكن مختلفة وكلّهم تقريبًا عاشوا الحرب كما عشت الحرب، والآن ـ مثلي ـ يدخلون زمن السلم. كنّا نتحدّث والواحد يخبر الآخرين قصصه، ولكن بحذر، كأنّنا نتحرّك في أرض وعرة، كأنَّنا نفحص قشرة الأرض تحت القدمين قبل أن نتقدّم، قبل أن نخطو الخطوة الجديدة الخطرة... لعلّ غيري لم يكن مغمورًا بهذا الشعور. أنا كنتُ كذلك. ليس على سلاحي، ولكن كنت أحسّ طوال الوقت أنّني قد أكون (قد أكون) عرضة للخطر. في المقابل شعرت بالأمان. كان هذا غريبًا جدًّا بالنسبة إليّ: أن أشعر بالأمان بين كل هؤلاء الغرباء الذين يسكنون هذه الغرف المتوازية على الطابق الخامس في هذه البناية. أن أشعر بالأمان وأنا بعيد من بيت أبي!

وتكاثرت عليّ المنامات المحيّرة. وجه المرأة الشقراء التي رأيتها في الملجأ وأنا صغير، هذا الوجه صار يطاردني. لم أكن أهرب منه، بل العكس: كنت أحبّ كيف تظهر في مناماتي. كأنَّها

تبحث عنّي. وصرتُ أنتظر ظهورها. ثم بدأت أتضايق: من هي؟ هل رأيتها من قبل؟ أين؟ ومتى؟

قبل نهاية الشهر الأوّل تصادقت مع طالب في اختصاصي (الميكانيك) بيته غير بعيد من الجامعة (بيته في فردان فوق الحمرا؛ يقدر أن يصل إليه ماشيًا في عشر دقائق). بيته قريب ومع هذا يسكن في الداخلي: فوقي، على السادس. قال لي إنَّه يفضّل العيش بعيدًا من أهله: هنا، في الداخلي، يشعر بالحرِّيَّة. كنّا ننزل ونتمشّى على دروب الجامعة، تحت الأشجار، وبين المصابيح المضاءة. عندما تنقطع الكهرباء (وفي ذلك الوقت كانت الكهرباء مازالت تنقطع كثيرًا) يرتفع الصياح في الداخلي وتسود الظلمة الجامعة: هذا يحدث للحظات قصيرة ثم يشتغل المولّد وتشعّ مصابيح الحرم الجامعي. خارج سور الجامعة نرى الظلام. أخبرك عن هذا لأنَّ هذه اللحظات القصيرة أثّرت فيّ: كنتُ لحظة ينقطع التيّار الكهربائي ويرتفع الصراخ في الداخلي (يهتفون ويضحكون واقفين أمام أبواب الغرف في الظلام) أشعر بطاقة لا محدودة تتجمّع حولي. كانت الطاقة معي، لم تكن ضدّي. شعرت ـ هذا ما أحاول قوله ولا أدري هل يصل إليك ـ شعرت أنَّ نوافذ لم أعرف بها تتفتّح داخلي. شعرت أنَّ أشياء لم أعرفها، أشياء سرِّيَّة، توشك على الظهور.

الآن أعرف أنَّ هذا تذكّر وتخيُّل معًا. لكن كيف تفصل بين الاثنين؟ كنت أقرأ القدّيس أوغسطين وأفكّر في أيّام قديمة عندما رنَّ الجرس الصغير في غرفتي: نزلت راكضًا إلى مدخل البناية.

التقطت سمّاعة الهاتف وقلبي ينبض أسرع من المعتاد. سمعت صوت إيليّا. الكتاب في يدي (ليس لي، واحد من جيراني يقرأ كتبًا غريبة، أخبرني عن الكتاب ففتحته... لاحقًا سأقرأه أكثر من مرّة)، وأسمع صوت إيليّا آتيًا من بعيد، من وراء خطّ التماس، من «الشرقيّة».

في «مستشفى رزق»، وهم يشقّون جبهة أبي للمرّة الثانية ويفتحون رأسه، قال لي إيليّا إنّ علينا أن نستعدّ للأسوأ. أنا شربت ماء من القنّينة التي أحملها ونظرت إلى المقاعد المقابلة. كنّا نكرّر الجلسة القديمة: نقعد في القاعة ذاتها وننظر إلى الفراغ ذاته. حتى البوّابة المطلّة على الأشجار مواربة كما كانت مواربة في المرّة الماضية. استغربتُ هذا الشعور: كأنّني ابتعدت. ليس جسمي فقط الذي ابتعد عن البيت. نفسي أيضًا بدأت تبتعد. كان إيليّا يقول شيئًا عندئذٍ وأنا من دون أن أنتبه كنتُ أفكّر أنّه منتصف الليل وفي مثل هذا الوقت أكون واقفًا على شرفة الطابق الخامس أنظر إلى الأضواء البعيدة تلمع على التلال وتلمع في عرض البحر (مراكب صيّادين). كنت أفكّر في وقوفي على الشرفة ليلاً ـ وفي اللحظة ذاتها أسمع الهتافات وطاقة الفرح الغريبة التي تنبعث من البناية لحظة انقطاع الكهرباء ـ حين أخبرني إيليّا ما عجز عن قوله في المرّة الماضية:

ـ هناك شيء يجب أن تعرفه.

«أخبرني إيليّا أنّني لست أنا (قال وجدوني على خطّ التماس مصابًا أنزف من صدري). بعد ذلك سأسمع القصّة التي أخبرتك إيّاها في البداية (سيّارة من «الغربيّة» وصلت إلى زاروب: حدث شيء ولعلع الرصاص. كل الذين في السيّارة قضوا بالرصاص إلاّ أنا. أصبت في صدري وبقيت حيًّا. لم أكن أريد أن أموت). سأسمع القصّة وأنا أنظر إلى الرباط الأبيض يلفّ رأس الرجل الذي حملني مدمّى من خطّ التماس والذي اعتقدت طوال حياتي أنَّه أبي. من كان؟ الشاش يخفي نصف وجهه، يخفي الرأس ونصف الوجه ويخفي الأذن ويخفي أجزاء من الرقبة. من كان؟ عينه الباقية أين كانت تنظر في أيّامه الأخيرة؟ ضعتُ بعيدًا. لا أعرف أين ذهبت بعد أن عرفت. أذكرني أسير في طرقات الجامعة ثم أترك الطريق المعبّدة وأدخل بين الأشجار. الأعشاب والتراب والورق اليابس. الجذوع السوداء وتحت القشرة الميتة أرى اللون الأبيض. هل كنت أرى شيئًا؟ من كنتُ في تلك الأيّام؟ بعد سنوات سأسير على تلك الدرب الضيّقة مرّة أخرى، بين الأشجار التي تفصل القسم الفوقاني عن القسم التحتاني. في هذه المرّة سأرى البراعم الخضراء النابتة على قشرة الجذوع الميتة، سأرى الزهور بين الأعشاب وسأسأل نفسي أين ذهب ذلك الشخص الذي مرَّ من هنا قبل سنوات، أين ذهب؟

أريد أن أخبرك ما حدث لي لكنّني لا أعرف كيف أفعل. هل تستطيع أن تتخيّل شعوري وهم يقولون لي بعد كل تلك السنوات إنّني لست أنا؟ الواحد لا يقدر أن يُخبر ما فيه، يحاول مقدار ما يستطيع، لكنّه لا يقدر. الآن عندما أحاول أن أجد كلمة تشرح ما أصابني لا أجد إلاً هذه الكلمة: «اختنقت».

خرجت من بينهم وأنا أشعر بيدين جبّارتين تخنقان رقبتي. ابتعدت وابتعدت، قطعت خطّ التماس، قطعت طرقات وأحياء وأبنية، لكنّ القبضة ظلّت تشدّ رقبتي: كأنّ كلماتهم سدّت قصبتي الهوائيّة. الرجل قال أنت ابني. صوت آخر قال أنت أخي. وصوت ثالث ماذا قال؟ خنقتني الأصوات. هربت.

لكنّني لم أكن أهرب. أردت الهواء. كنت أطلب أن أتنفّس. مع هذا لم أجد الهواء. لعلّني طلبت عكس ذلك: لعلّني طلبت أن أختنق تمامًا. عندما أتذكّر نفسي في تلك الأيّام أتذكّر شخصين. أتذكّر شخصًا مقطوعًا إلى نصفين. لا أتذكّر شخصًا واحدًا.

العمليّة نجحت. لكنّ النجاح دام أربعة أسابيع. جلطة ثالثة (بعد العمليّة هذا احتمال وارد، قال الطبيب) قضت على الرجل الذي حملني من خطّ التماس إلى بيته في الأشرفيّة سنة 1976.

أنا ذهبت إلى جنازته. إيليّا الذي يبكي حَضَنَ جسمي بين ذراعيه. أقول لك هذا وأنا أرى الصور تكرّ في رأسي. الذاكرة حقول، حقول وقصور وكهوف ودهاليز. الآن أستجمع ذكرياتي وأرى الذكريات تتدفّق، أبعد الدفق بيدي وأبحث عن ذكرى محدّدة تختفي وراء الدفق، كأنّك تبحث عن حجر مصقول ينام في قعر

النهر. هذا ما أفعله وأنا أحكي لك: أخرج الذكريات من الغرف الخلفيّة، أدخل الزواريب البعيدة عن الأقدام وأحاول أن أعثر عليّ.

المكان ذاته. وكانت تمطر. إيليّا بين أخواته. اللون الأسود والكاهن الذي يقول كلمات تضيع بين قطرات المطر. لم أرجع معهم إلى البيت. رأيت الوجوه بعيدة، المطر يتساقط بيننا، وهم وراء الصفحة الرقراقة. عندما اقتربوا منّي ذهبت. ابتعدت وابتعدت، قطعت خطّ التماس، قطعت طرقات وأحياء وأبنية، مشيت ومشيت.

عندما جلست على المقعد تحت أشجار الجامعة شعرت بالبرد. المطر يسيل عليّ، أغمض عينيّ الآن وأقدر أن أراني هناك، ولا أرى شخصًا واحدًا. أرى نفسي اثنين، كأنّني انشطرت إلى مخلوقين، كأنّني لست إنسانًا. بعد زمن كفّ المطر عن التساقط. أذكر الضوء البرتقالي يغمر البناية القديمة التي تواجهني، يغمر النبات الأخضر الذي يتسلّق حيطان البناية، يغمر القرميد الأحمر. تباعدت الغيوم في ساعة الغروب وخرجت القطط وتجمّعت في بقعة الضوء الأحمر. لكنّ المطر ظلّ يتساقط في رأسي. الرجل تحت التراب. من كان؟ أنا على المقعد تحت الأشجار. من أنا؟ كبست يديّ على البنطلون، عصرت الماء من ثيابي.

زمن طويل مرّ وأنا لا أعرف كيف أتنفّس. اثنان يتصارعان في صدري، لا أعرف من هما، لا أعرف أين النهاية. أحاول أن أخبرك وأعرف أنّني أعجز.

كنت أذهب إلى صفوفي وأسجّل المحاضرات في الدفاتر وأرجع إلى الغرفة. أقرأ ما كتبت ولا أفهم. كأنّني نسيت الإنكليزيّة. حتى الأرقام، حتى المعادلات الرياضيّة، حتى الرموز التي أعرفها جيّدًا، لم أعد أفهمها. (مارون كان يعرف هذه الأشياء، لكن أنا كيف أعرفها؟ أنا؟ لكن من يكون هذا؟).

أسوأ فترة في حياتي (حياتي؟ حياة من؟). أيّام وأيّام وأيّام وأنا أنحني على المكتب وأنسخ معادلات غامضة على ورقة بيضاء تصير سوداء بعد قليل، أكتب فوق السطور سطورًا والمعادلات لا تمنحني سرّها. كان أنطوان يجرّ باب الغرفة آتيًا من الكافتيريا: يقف فوق رأسي ويسألني هل أكلت. أدور وأنظر إليه وأرى الشرفة وأرى الدرابزين الأبيض وأرى السروات الخضر وأرى قرميد كلّيّة الرياضيّات وأهزّ رأسي. مرّات لا أهزّ رأسي. وطوال الوقت أشعر أنَّ ظهري مقطوع. كأنّني أعجز عن القيام، كأنَّهم كسروا سلسلة ظهري. كان أنطوان يذهب ثم يرجع حاملاً سندويشة بطاطا من «يونيفرسال» المجاور للجامعة. آكل جزءًا من السندويشة ولا أكملها. أجد صعوبة في البلع. أقول سأكملها لاحقًا وأنا سهران ليلاً. يذهب والباب الجرّار ينزلق ويضرب الحافّة. قال إنَّه يخشى عليّ أن أرسب في مادّتين وأفقد المنحة.

بعد سنوات، وأنا أقضي فترة تمرّن (training) في مرفأ هامبورغ، التقيت امرأة تُدعى كريستينا. كانت مثلي آتية للتمرّن. أخبرتني أنَّها بعد التخرّج (خلال شهور) ستعمل في مطار أوسلو. تصادقنا وكنّا نذهب إلى «بار» غير بعيد من مبنى البلديّة القديم.

نشرب بيرة طافحة بالرغوة ونأكل سندويشات بطاطا مقليّة. أخبرتني كريستينا قصّة، وأنا بينما تخبرني القصّة الغريبة، تذكّرت الغرفة في مبنى الداخلي، وسندويشة البطاطا (ما بقي منها) ملفوفة في الورق على المكتب، والرياح تهبّ في الخارج (إذا تقدّم الليل يهبّ الهواء ويلوي رؤوس السروات ويضربها على درابزين الشرفة؛ المطر ينهمر، وأنا أسهر في ضوء المكتب، الضوء المعلّق فوق المعادلات الغامضة... البرد، البرد. وسخّان كهربائي يرسل دفئًا قليلاً عند قدميّ، السلك يتوهّج أحمر اللون، وإبريق الشاي يصفر). كريستينا تحكي قصّة أبيها وأنا أسمعها وأشعر أنّني هناك، في الغرفة التي تركتها في بيروت... كنت أتذكّر تفاصيل الغرفة وأعجز عن تذكّر الشخص القاعد إلى المكتب، محني الظهر، ذقنه نابتة، منذ أيّام لم يحلقها، وحول عينيه دوائر قاتمة. هذا ما أخبرتني إيّاه كريستينا ونحن نُدخّن، بعد الشراب والطعام، وقبل أن نخرج إلى الليل الماطر: أبوها من قرية مشهورة بصناعة صنف معيّن من النقانق. لكنّه هو لا يشتغل في هذه الصناعة. أبوها يُربّي الأسماك ويكبس الأسماك، يصنع منها مخلّلات. وعنده هواية محبّبة: جمع الفطر من «الغابة السوداء». كان يجمع الفطر في منطقة وعرة وسقط بين الصخور، سقط في هوّة وخبط رأسه على صخرة. عندما فتح عينيه لم يرَ إلاّ الظلمة. ثم رأى النجوم في السماء. قبل رؤية النجوم ظنَّ أنَّه مات. ظَنَّ أنَّ هذا هو الموت. ثم أدرك أنَّه لم يمتْ. أراد أن يتحرّك، حاول أن ينهض، لم يقدر. كان عالقًا بين صخرتين. جسمه علق بين الصخور ولم يقدر أن يُخلِّص نفسه. غطّاه الندى. كان الندى باردًا، مثلجًا، هذه «الغابة

السوداء»، هذه أرض عالية. تعرف «الغابة السوداء»؟ بعد جهد استطاع أن يتحرّك، استطاع أن يفلت من قبضة الحجارة. عندئذٍ انتبه أنّه لا يتذكّر من هو. طوال الوقت وهو يصارع الصخور كي يُحرّر جسمه لم ينتبه إلى هذا. عندما استطاع الخروج من الهوّة ووقف على التراب وبين الأشجار انتبه أنَّه لا يتذكّر من أين أتى، لا يتذكّر من يكون، ولا يعرف اسمه».

كريستينا سكتت ونظرت إلى مجموعة صاخبة دخلت «البار». كانوا مخمورين ويرتدون ملابس صيفيّة، مع أنَّ الهواء بارد. أنا سألتها ماذا حدث لأبيها بعد ذلك؟

قالت إنَّه تسلّق شجرة كما في القصص وبحث عن ضوء وعندما رأى ضوءًا مشى إليه وهكذا بلغ القرية. ذهب إلى البيت الأوّل، طرق باب أوّل بيت صادفه، وعندما فتحت عجوز منبوشة الشعر الباب (كانت مذعورة، الوقت متأخّر) سألها هل تعرفه، هل تقدر أن تقول له اسمه.

قصّة كريستينا بقيت في رأسي. أنا تمنّيت دائمًا لو سمعت هذه القصّة قبل تلك الفترة، عندما كنت أنحني على المعادلات غير المفهومة في غرفتي على الطابق الخامس وأشعر بالظلمة تتسرّب إلى عينيّ. أذكر شريكي يشخر في نومه وأنا ألتفّ بالبطّانيّة وأخرج إلى الشرفة وأمشي حول الطابق الخامس، حول الغرف المطفأة، مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات. أهبط الدرج، المشّاية تجرجر على الدرج. لا أهبط في المصعد لأنَّه مرّات يتعطّل. إذا تعطّل في نصف الليل، بعد نصف الليل، عليك أن تنتظر طويلاً قبل أن يستيقظ أحد. كنت

أنزل إلى مدخل البناية، أنظر إلى غرفة التلفون المقفلة، أنظر إلى التلفون الأسود جامدًا تحت الضوء. لماذا يتركون الغرفة مضاءة، لا أعلم. بعد ذلك أدخل البهو وأفتح التلفزيون. مرّات أتابع السير. أذهب إلى المرج البيضاوي، أذهب أبعد. في بعض الصفوف أرى طلابًا يسهرون ويدرسون. طالب واحد في كل غرفة. هنا الضوء أقوى. نيون أبيض. أرى وجهًا متعبًا يرتفع عن الكتاب وينظر إليّ. أرى كوب النسكافيه الكبير جنب الكتاب. هل كنت أرى شيئًا؟ الآن وأنا أتذكّر ـ كي أخبرك ـ أرى أشياء لم أكن عندئذٍ أراها. مع أنّها كانت أمامي.

لو سمعت قصّة كريستينا قبل ذلك هل كانت تنفعني؟ أبوها تسلّق شجرة وبحث عن ضوء. قرع الباب الأوّل والعجوز فتحت له. سألها عن اسمه وقالت له: كانت تعرفه. أنا من يعرفني؟

كان الجرس الصغير في غرفتي يطنّ وشريكي في الغرفة يقول هذا لك وليس لي. أترك الغرفة وأسير على طول الشرفة ثم أصعد على الدرج إلى الطابق السادس. أقف فوق وأنظر إلى جهة البحر. لا أنزل إلى غرفة التلفون ولا أردّ. أعرف من يتصل.

حتى الآن لا أدري كيف نجحت. لم أرسب لا في مادّتين ولا في مادّة واحدة. من كان يدرس بدلاً منّي وأنا أنظر إلى الرموز والعلامات ولا أستوعب معناها ولا أعرف ماذا تكون؟

قلت لك في بداية قصّتي: لا تحكم عليّ. مرّ الوقت وعندما طنّ الجرس نزلت وأخذت سمّاعة التلفون. قال إيليّا إنّه مرّ على الداخلي مرّتين ولم يعثر عليّ. أنا تفاجأت لأنّ أحدًا لم يخبرني أنّ

أحدًا جاء وسأل عنّي. قلت له لم أعرف. قال إنّه كسّر التلفون وهو يتلفن، يريد أن يراني، «ونجوى أيضًا تتلفن لك من باريس».

بعد أيّام طنّ الجرس من جديد. سمعت صوت نجوى آتيًا من بعيد، كان الخطّ يتقطّع. أسمع كلمات وتضيع كلمات في الطريق. سألتني لماذا لا أزورها في العطلة: «أريد أن أراك يا أخي، أريد أن أقعد وأحكي معك، تعال إلى باريس». قالت سأحجز لك مقعدًا على الطائرة وأرسل لك البطاقة بالبريد.

لا تحكم عليّ. أنا وأنطوان قضينا العطلة في «قسم الميكرو فيلم» في مكتبة الجامعة نبحث في جرايد الـ 76 عن سيّارة بيضاء محروقة (محروقة أو مثقوبة بالرصاص، خالية أو مملوءة جثثًا). بحثنا عن سيّارة محطّمة في محيط ساحة البرج فوجدنا مئات السيّارات: بيضاء وغير بيضاء. قرّرنا أن نبحث في صفحات الوفيّات. جرّبنا أن نعرف شيئًا من صور المفقودين وأسماء المفقودين (أعداد لا تحصى من الصور والأسماء). لم نترك بابًا إلاّ طرقناه. أنطوان حاول أن يقنع قاضيًا من أقربائه بالبحث في سجلات الأمن الداخلي: القاضي ضحك وقال إنّ كل سجلات الحرب ـ خصوصًا حرب السنتين ـ احترقت. احترقت أو ضاعت أو سُرقت أو دُمِّرت أو فُقدت. مصلحة السيّارات أيضًا احترقت سجلاتها (هذا اقتراح أنطوان، أن يبحث عن مرسيدس بيضاء أو أوبل بيضاء). ماذا تفعل إذا تسلّقت الشجرة ولم ترَ ضوءًا؟

إيليّا ساعدني أيضًا. هو الذي تذكّر اسم إيفلين عازار. وجد رقم تلفونها في دفتر قديم في جارور «الدرِسوار». اتصل بها ورتّب لي

موعدًا. عندما فتحت لي باب بيتها في الرميل كانت تحمل محرّمة. تسعل وتخفي فمها. قالت إنّ الأنفلونزا لا ترحم. بقيتُ في بيتها عشرين دقيقة أو ثلاثين دقيقة، وقسمتْ حديثها بين الإنفلونزا وفترة «رعايتها الأيتام في بداية الحرب». قالت إنّها دبّرت بيوتًا هنا كما في الخارج لعددٍ لا يُحصى من الأيتام. وقالت إنّها لا تقدر أن تساعدني لأنّها لا تعرف شيئًا عنّي. كانت تساعد في ترتيب المعاملات لعددٍ لا يحصى من الأيتام. كانوا أرقامًا وأسماء بالنسبة إليها. وسألتني لماذا لا أسأل «المختار».

إيليّا قال لي ـ عندما أخبرته ـ إنّ «المختار» الذي تذكره مات قبل سنوات. وقال حتى لو كان ليس ميتًا، ماذا سيعرف؟

أنطوان اقترح أن نضع إعلانًا في الجريدة. قلت له وأنا أشعر بالنعاس (بعد الامتحانات أصابني هبوطٌ جسماني. طوال الوقت أشعر بالحاجة إلى النوم. لكنّني إذا رقدت في السرير لا أنام. كنتُ أنام قليلاً. ومرّات يمرّ الليل ولا أنام إلاّ ساعتين): «ماذا سنكتب في الإعلان؟».

تغيَّرت مشيتي. وأنا أسير في الشوارع الممتدّة بين بلس والحمرا ألتفت وأرى في واجهات المتاجر شخصًا محني الظهر. كأنّه عجوز. طوال الوقت أشعر بعقدة أسفل سلسلة ظهري. هل هذا تذكّر أم تخيّل؟ هكذا أتذكّر نفسي في تلك الأيّام. وأرى شرايين حمراء في عينيّ.

عندما صار الوجع في رأسي يمنعني من النوم ذهبت إلى مستوصف الجامعة. أنت تعرف المستوصف. قريب من الداخلي

ويغرق في ظلال الأشجار العملاقة. في تلك الأيّام ـ عطلة بين فصلين ـ كان المكان خاليًا. أذكر خطوتي المتمهّلة، أدوس الأوراق اليابسة في الممرّ الخارجي، وأسمع الصوت البعيد (أشياء يابسة تتكسّر) ولا أفهمه. ماذا تفهم؟ أذكر الطعم الحامض يصعد من جوفي وأميل وأستند إلى شجرة. على الشجرة بطاقة معدنيّة: مدقوقة (origini: India) ولحم الشجرة ينمو ويغطّي زوايا البطاقة المعدنيّة. أضع يدي على القطعة الحديد وأحجبها. حتى اليوم لا أمرّ هناك إلاّ وأقترب من الشجرة origin: India.

الطبيب سألني هل أدخّن كثيرًا، هل أشرب؟ عندما دخلت مكتبه لم ينهض. رفع رأسه عن أوراقه وأشار إليّ أن أجلس. روبه الأبيض مفكوك الأزرار وطوال الوقت يلعب بسمّاعة النبض المتدلّية من رقبته، كأنّه يُصلحها (أو يعطبها). في البداية منحني نظرة عدائيّة، نظرة استياء مطلق. انتبهت أنّني ساكت، أنّني دخلت وجلست ونسيت أن أتكلّم. عندما أخبرته قال الصداع الشديد شائع في فترة الامتحانات وبعدها، هذا بسبب الإجهاد، إذا أجهدت الدماغ يُصاب بالإرهاق ويتمرّد. لم يقترب منّي ولم يلمسني. أنا فكّرت هكذا أحسن (هل كنت أريده أن يلمسني؟ هل جئت إلى هنا من أجل ذلك؟). كتب لي وصفة دواء على ورقة الـ infirmary البيضاء ذات الخطّ الأزرق، كتب الوصفة وهو يتنفّس بصعوبة (عنده ربو؟) ومدّها إليّ. نظرت فرأيت خطّ الأطبّاء الذي لا يفكّ لغزه إلاّ الصيادلة.

الصيدلي أخبرني أنّ هذا الدواء ممتاز وأقوى من البنادول بدرجات وبلا آثار جانبيّة. هذا كلّه (الشجرة خارج المستوصف؛

روب الطبيب الأبيض؛ الورقة بالخربشة والخطّ الأزرق؛ العلبة يرميها الصيدلي على زجاج المنضدة التي تفصل بيننا) محفوظ في الذاكرة: لماذا تحفظ كل هذه الأشياء الخالية من القيمة وتترك النسيان يطمر اسمي القديم؟ وأنا في السرير كنت أجاهد (مغمض العينين، مفتوح العينين) كي أتذكّر اسمي الأوّل. كنت أجاهد كي أتذكّر من أكون، وكلّما جاهدت نسيت أكثر. صرت حتى أجد صعوبة في تذكّر البيت في الأشرفيّة!

ثم جاءت تلك الليلة: كان الجوّ حارًّا واستيقظت لاهثًا مقطوع النفس. العرق يبلّني ورائحة الدخان العالقة بأصابعي وبيجامتي وشعر رأسي تُثير الغثيان. كأنّها ليست رائحتي. كأنّها رائحة شخص آخر أتى وأنا نائم ولبس جسمي ولبس بيجامتي وطردني إلى جهنّم. أيقظني صداع لم أعرف مثله من قبل. كان الألم يتجمّع كثيفًا في نقطة واحدة فوق العين اليمنى. أحسست بالدم يصخب ويدور ويتلاطم في دماغي: شعرت بدماغي يثقل، يضجّ. كان دماغي مملوءًا بالدم. أمسكت رأسي بين يديّ، أردت أن أصرخ. شريكي نائم، هذه الليلة لا يشخر، نائم ولا يشعر بشيء. أنا في جهنّم وهو ينام. خفت أن يخرج الدم من المسام حول أذنيّ (خفت؟ لم يكن حتى الخوف ممكنًا. كان ألمًا فظيعًا لا يسمح حتى بخوف). قمت إلى الحمّام. غسلت وجهي. وضعت رأسي تحت الحنفيّة الباردة وغسلته. لكنّ الصداع لم يتراجع: ازداد حدّة. كان رأسي ثقيلاً وكنت أسنده بيديّ وأخاف أن أقع (أوشك أن أقع). ابتلعت الأدوية مع ماء كثير. جلست على الكرسي وأضأت لمبة المكتبة. سمعت غمغمة النائم ورأيت حركة تحت الشرشف ثم همد. كنت

أغمض عينيّ وأفتح عينيّ وأحاول أن أبعد الألم. بلا جدوى. شعرت أنّ الدم المتلاطم في جمجمتي يضغط على عينيّ من الداخل، كأنّه يتضايق من مكان العينين. شعرت أنّ عيني اليمنى ستخرج من محجرها.

حتى على الكرسي عجزت عن البقاء جالسًا. تمدّدت على السرير مرّة أخرى. أبعدت المخدّة (قاسية صارت تحت رأسي، رأسي بات لا يتحمّل، في لحظة تضاعفت حساسيّته، حتى لمستي تؤلمه). غار رأسي في الفراش. في حياتي لم يحدث لي مثل هذا. رفعت جسمي مرّة أخرى. استندت بظهري إلى الحائط. البرّاد الصغير الذي يفصل بين السريرين كان يطنّ طنينه المألوف: سمعت الطنين الذي أعرفه وحاولت التركيز عليه. ربما هكذا أنشغل عن رأسي. الآن وأنا أتذكّر تلك اللّيلة ـ كنتُ في الجحيم ـ أسأل نفسي هل كان عقلي يتمرّد كما قال الطبيب؟ هل أجهدته وأنا أقرأ قانون الجاذبيّة ومعادلات الدارات الكهربائيّة والسقوط الحرّ للأجسام (Free Falling bodies) وشرط تحوّل المادّة إلى الطاقة (بلوغ سرعة الضوء)؟ هل عرَّضته للأذى وأنا قاعد في غرفة الميكرو فيلم، غارقًا في الظلمة، أنظر إلى الكلمات الصغيرة السوداء على الشاشة الصفراء وأبرم الـ roll بيدي: أرى الكلمات وأرى الصور القديمة، بالأبيض والأسود، محفوظة، أرى الكرنتينا وتلّ الزعتر وجسر الباشا وأرى الطرقات وعلى الطرقات أكوام الجثث وأرى المقاتلين (بينهم وجوه أظنّ أنّني أتذكّرها؛ مقاتل بلحية سوداء، عيناه كبيرتان تنظران إليّ بمودّة) يدوسون على الجثث ويشربون الشمبانيا من القناني التي تفور ويتبادلون الأنخاب. أرى الجثث

على الأرض وثلاثة فتيان صغار السنّ يحملون الرشّاشات معلّقة من رقابهم وأحدهم يحمل غيتارًا ويلقي على كتفيه شالاً عريضًا، ليس شالاً، لا أعرفه ماذا تسمّيه، مثل الفلاحين المكسيكيين في الأفلام الأميركيّة. هل تأذّى دماغي وأنا أنظر إلى الوجوه تبتسم للكاميرا وأحد الفتية يشير بيده إلى جثّة امرأة شبه عارية في طريق بين البيوت. بقع الماء على الطريق (أم الصورة فاسدة)؟ هل عرَّضت دماغي للأذى وأنا أنظر إلى الصور تتوالى وأتذكّر أبي ـ هذه ذكرياتي؟ ذكريات إيليّا؟ ـ عائدًا إلى البيت ورائحة الدخان والقتل تفوح من ثيابه؟

أردت أن يبتعد الألم. أردت أن أصرخ. كان رأسي بين يديّ ولم يكن رأسي. كأنّ قوّة غير مرئيّة أخذت رأسي وأنا أنام ووضعت مكانه هذا الرأس. لكنّه رأسي. كان ثقيلاً والدم يفور في دماغي وشعرت أنّني سأموت: «إذا لم يتوقّف هذا الألم بعد قليل سأموت». هكذا قلت لنفسي. من شدّة الألم كنت عاجزًا عن التنفّس. حاولت أن أمارس تمارين التنفّس (الشهيق المتمهّل والزفير المتمهّل). قلت: «الدماغ يحتاج إلى الأوكسجين». جرّبت ولم أقدر. تمدّدت على ظهري واستسلمت للألم. استسلمت؟ لا أدري ماذا كنت أفكّر. تمدّدت على ظهري وقلت في نفسي «ليذهبْ، ليذهبْ الألم من رأسي، ليذهبْ هذا الألم». أمسكت عضوي بيدي وصرت أشدّ عضوي من جذوره كما كنت أفعل عندما ترهقني الحرارة العالية وأنا صغير. أشدّ عضوي من جذوره، أضغط عليه في بطن يدي، وأحاول أن أركّز طاقة جسمي كلّها هناك، لعلّ الألم يذهب من الرأس، لعلّ الألم ينتقل إلى نقط

أخرى، لعلّه يتوزّع على جميع أعضاء الجسم ويخفّ رأسي. كنت أضغط بيدي وأرى سحابة حمراء تعبر دماغي وأستدعي ـ بكلّ ما عندي من قوّة باقية ـ صورًا تنجدني. دخلت قصر الذاكرة المظلم وناديت. كانت الغرف لا تُعدّ ولم أرَ الغرف لأنّ الأبواب موصدة. ناديت وناديت، طلبت هيلدا ورأيتها بيضاء وعارية وجاءت ونامت جنبي في فراشي ووضعت يدها عليّ: كنت أطلب هذا، كنت أطلب أن تلمسني يد. هل أنا حقيقي؟ هل أنا موجود؟ السحابة الحمراء تنتشر على عينيّ وتغمر الوجه. ضاع الوجه، حاولت أن أتذكّرها، لكنّها ضاعت، كأنّها طُمرت هناك، بينما الأكياس الممزّقة تنزلق والتربة تنزلق والعلب القديمة تنزلق ودواليب المطّاط الممزّقة تنزلق... كل شيء ينزلق إلى البحر والمكبّ يتداعى والزبالة تطفو على البحر.

ناديت على الذين أعرفهم، ناديت الأحياء وناديت الموتى، مطروحًا على ظهري، ساكتًا بلا نَفَس، في تلك الغرفة في الطابق الخامس. ناديت ولم يأتِ أحد. أين اختفوا؟ رفعت يدًا وكبست دماغي. تضاعف الألم حتى كدت أصرخ. أبعدت يدي. لم أعرف ماذا يحدث لي. كأنّ دماغي ينشطر نصفين: هل يقتلني ورم في الرأس؟ هل يقتلني ورمٌ في دماغي كما قتل أبي؟ (قلت أبي. كنت في الجحيم ومن دون أن أنتبه قلت «أبي». قلت الكلمة وأحسست بالكلمة ورأيت الرجل ينظر إليّ بالعين الباقية وأنا أرجع أسود الوجه ذات مساء إلى البيت. كان قاعدًا في المدخل، قبالة الباب، ورفع يده وأنا رفعت يدي. لم أنظر إليه ولم أتوقّف أمامه ولم أحكِ معه. رفع يده الكليلة وأنا رفعت يدي).

أردت أن أصرخ. كان الألم لا يُحتمل. أعرف وأنت تعرف أنّ الواحد لا يقدر أن يُخبر ألمه. يُكرّر الكلمات ذاتها مرّة تلو أخرى حتى تشعر بالملل وأنت تسمعه. يتعب، يُجهد نفسه كي يقول، كي يُخبر ما حدث له، ما أصابه، وأنت تملّ. أعرف، الألم هكذا، غير قابل للوصف.

هل تعرف كيف رجعت إلى النوم؟ هل تعرف كيف ذهب عنّي ذلك الصداع الذي لم أعرفه من قبل؟ صرت وأنا أئنّ أقول يا ربّي، ليذهبْ هذا الوجع يا ربّي، يا ربيّ، يا ربّي ليذهبْ... هل كنتُ أصلّي؟ هل كنتُ أهذي؟ كم كانت حرارتي عندئذٍ؟ كانت ليلة حارّة (هل كانت حارّة؟ شريكي كان يتغطّى! لم أرَه يبعد الأغطية عنه!)... هل ارتفعت حرارتي؟ لا أظنّ أنّ حرارتي كانت مرتفعة. إذًا، لم أكن أهذي! ماذا يُبدّل هذا؟ صلّيت، أظنّ أنّني وأنا أنادي كي يذهبْ الألم من رأسي، أظنّ أنّني صلّيت.

أخبرتك تفاصيل تلك الليلة لأنّني بعد ذلك بأيّام قليلة، وأنا أتحمّم بمياهٍ باردة وأفرك رأسي، أحسست بشيء ساخن يخرج من أذني. لمست أذني وأنا أقفل الحنفيّة ثم خرجت من تحت الدوش ونظرت في المرآة: كنت أنزف من أذني.

قطرات قليلة فقط. لكنّني نشّفت جسمي ولبست ثيابي ونزلت إلى المستوصف. كان شعري رطبًا عندما فحصني الطبيب (هذا طبيب آخر. أكبر سنًّا. قامته طويلة وينحني وهو يسير: مازلت ألمحه عابرًا طرقات الجامعة وأحبّ أن أراقبه من بعيد). استخدم القطن الطبّي وتلك الأعواد البلاستيك الرفيعة. أدخل القطن في

أذني اليمنى وفي أذني اليسرى. سألني هل أتناول أيّ أدوية؟ قلت له اسم الدواء. هزّ رأسه وقال شيئًا. لعلّه تكلّم باللاتينيّة! أعطاني دواء آخر وقال أهمّ من الدواء أن تستريح. «اذهب وامشِ على الكورنيش كل يوم». رفع عينيه عن الوصفة قبل أن يختمها بالختم وقال «المشي أحسن دواء لوجع الرأس، واشربْ ماء، الماء الكثير يفيدك، انظرْ ما أجمل هذه الجامعة، في الليل ـ أنت في الداخلي، صحيح؟ ـ في الليل بدل أن تقعد أمام التلفزيون انزلْ وامشِ بين الأشجار، لا تفكّر كثيرًا، وستتحسّن».

هل كنت أفكّر كثيرًا؟ لم أكن أفكّر. كنتُ حتى عاجزًا عن ذلك. كل ما أطلبه أن أتذكّر. هذا ما كنت أحاول فعله طوال الوقت. ألم أقل لك إنّني انقسمت إلى اثنين، ألم أقلْ لك إنّني تحوّلت إلى مخلوقين في جسم واحد؟ وأنا أدرس للامتحانات كنتُ اثنين (واحد يدرس وآخر يحاول أن يتذكّر حياة ضاعت منه وهم يقوّصون على سيّارة بيضاء). وأنا أنظر إلى الجرايد في غرفة الميكروفيلم الفاسدة الهواء كنتُ اثنين (واحد ينظر إلى العناوين ويبحث عن الكلمات ـ المفاتيح وآخر يحاول أن يتذكّر اسمًا قديمًا ضاع بين آلاف الأسماء).

بعد سنوات، أثناء رحلة عمل مع فريق من الشركة إلى دبي، التقيت صديقًا كنت أراه في أيّام الداخلي قاعدًا على الشرفة أمام غرفة أنطوان: كان واحدًا من جيران أنطوان وكنت أراه قاعدًا دائمًا في النقطة ذاتها يشرب الشاي أو النسكافة بالحليب ويقرأ مجلات سوبرمان. كأنّه لا يذهب إلى صفوفه أبدًا. طوال الوقت يقرأ هذه

المجلات. إذا اختفى عن الكرسي يكون في السينما أو في الكافتيريا أو جالسًا يلعب الداما على درج الوست هول وينظر إلى الفتيات. أخبرني ونحن نقف في بهو «فندق جُميرة» أنّه مهندس مدني (أنا أيّام الجامعة لم أرَه في القسم التحتاني، لا أتذكّر أنّني رأيته على درج كلّيّة الهندسة مرّة واحدة!). اكتشفت أنّه بعد سنتين في «الأميركيّة» (هذا صحيح، بعد السنة الثانية لم أعد أراه على الشرفة أمام غرفة أنطوان!) سافر إلى كولورادو، عند أخوته. أخوته كلّهم يشتغلون في أميركا وعائلاتهم هناك. لكنّه لم يحبّ أميركا. صار يضحك وهو يربت على كتفي في بهو الأوتيل وقال علينا أن نتعشّى معًا، أريد أن أخبرك شيئًا.

على العشاء ـ جلسنا في الطابق العلوي، هو طلب القريدس مع الرزّ، أنا طلبت «الخروف محشي» ـ أخبرني أنّ هذه أجمل مهنة في العالم. قال «إذا كنت تريد أن تعرف ماذا يقدر الإنسان أن يفعل، عليك أن تكون في مهنتنا» (مع أنّني لست مهندسًا مدنيًّا). أخبرني أنّه قبل شهرين كان في هونغ كونغ. سألني هل ذهبت إليها. قال إنّ المترو فيها طبقات، كلّما ازدادت الزحمة نزلوا طبقة أخرى تحت الأرض. وكذلك يفعلون مع الجسور. كلّما زادت الزحمة ارتفعوا بجسرٍ جديد فوق الجسر القديم. وهذا وحده لا يكفي: كل الأوتوسترادات التي تلفّ الجزيرة وتسمح لك بالدوران حول هونغ كونغ بينما تشرب كوب الشاي في سيّارتك وتسمع «جاز»، كل هذه الجادات مبنيّة على البحر، على الماء، كلّها مبنيّة على الردم. مثل هنا، قال.

سألني عن الجامعة وعن العميد (كنت أُدرّس مادّة لطلاّب السنة

الأولى ME 201). قلت له إنّ «الأميركيّة» ثابتة لا تتغيّر (Constant). ضحك وقال إنّ أباه يقول هذا أيضًا. أبوه تخرّج من الجامعة سنة 1961، مهندس أيضًا، وما زال إلى اليوم ينزل إلى الجامعة عند الغروب ويقعد مع رفاقه القدامى، هل تصدّق؟

سألني عن أنطوان. أعطيته بريده الإلكتروني.

سألني عن رانيا (فتاة كان أنطوان يخرج معها). ضحك عندما رآني أقلّب شفتي. بينما يضحك تذكّرت إيليا. كنّا ننتهي من طعامنا (انتظر حتى خفتت الضجّة وقلّ عدد الناس: طوال الوقت يردّ على تحيّات أشخاص يعرفونه) وأخبرني هذه القصّة: أخوه الذي يعمل في أوستن نزل إلى بيروت قبل سنوات كي يعمل في مشروع توسيع المطار. الشركة التي يعمل فيها هناك ـ في أوستن ـ كانت مشاركة في المشروع: كانت وظيفته الإشراف على دقّ أعمدة في البحر (Piles). هذه الأعمدة مهمّة للمدرج الجديد. لم يكن وحده المشرف. عمله كان بالتنسيق مع «دار الهندسة» في لبنان. هو حتى لم يكن «المشرف» تمامًا. تقدر أن تقول كان مستشارًا، أحد الاستشاريين. كانوا أوّلاً يُعدّون الأعمدة الفولاذ في مركز لدار الهندسة جنب المطار ثمّ يحملونها بالكميونات إلى شط الأوزاعي. كان الوقت صيفًا، والحرارة شديدة والجرّافة توسّع مكانًا على الشط عندما استخرجت أسنان الجرّافة جثثًا. رأى الجثث وفي البداية لم يعرف ماذا يرى ثمّ أصابته الحقيقة. قبل أيام فقط كان يقول لزوجته على التلفون ـ زوجته في أوستن، عندها عيادة، اختصاصيّة طب أطفال ـ كان يقول لها إنّ لبنان يتغيّر، ما يحبّه هنا

ما زال موجودًا، لكن ما يكرهه هنا بدأ يتغيّر ويزول. زوجته لم تحبّ الحديث وأبدت ضيقها. هي لا تحبّ لبنان ولا تصدّق أنّها خرجت منه وانتهت منه. قال لها علينا أن نأتي في إحدى عطلنا القصيرة وسوف ترين كم تغيّر، فقط نأتي إجازة، هكذا، من دون خطط، وكي تري بنفسك. هذا كان قبل أن يرى أسنان الجرّافة تقطع الجثث وهي ترفعها في الهواء والرمل يقع مع الثياب الملوّنة. أطفأ سائق الجرّافة آلته (غيمة مازوت فظيعة عبقت) ونزل وهو يبسمل ويستعيذ بالله. وقف ونظر إلى الأشلاء ثمّ استدار ونظر إلى المهندس الآتي من أميركا. ماذا قال له؟ لا أعرف. لكنّ هذا ما أعرفه: أخي في أميركا الآن. ولا أظنّ أنّه سينزل إلى بيروت مرة أخرى».

أوقفت الدواء الأوّل الذي قال الصيدلي إنّه بلا آثار جانبية (أخرجت الورقة المطبوعة وقرأت 11 أثرًا جانبيًا. أحصيتها، هي غير مرقّمة، أنا أحصيتها: 11 أثرًا جانبيًا). بعد ذلك لم أنزف دمًّا من أذني. (أحد أصدقاء إيليا كان يلعب الورق على سطح بيتنا بعد «حرب الجبل» وأذنه اليمنى مضمّدة وعينه اليمنى مضمّدة. لم يُصَبْ. لكنّه أثناء إحدى المعارك قصف عددًا كبيرًا من قذائف الـ ب ـ 7. تشقّقت قاذفته وعرف أنّها ستنفجر على كتفه. وراء ظهره احترق الدغل باللّهب المنبعث من قاذفته وكشف مكانه. غيّر مكانه واستولى على قاذفة رفيق مصاب. ظلّ يقصف حتى نزفت أذنه. ظلّ يقصف حتى بعد ذلك. أوقفه نزيف العين اليمنى. لم تتحمّل الضغط).

مع بداية الفصل الجديد لم يعد شريكي ينام في الغرفة. صار

يأتي مرة كل أسبوع أو أسبوعين، يقلب الغرفة رأسًا على عقب وهو يبحث عن غرضٍ من أغراضه ثمّ يذهب. مرّات أرجع من صفوفي وأراه مع أصدقاء له من خارج الجامعة يقفون أمام باب الغرفة ـ على الشرفة ـ ويتدافعون ويصرخون ويتضاحكون. كنت أراهم يلعبون ألعاب الصغار وأستغرب. أراهم يتحلّقون وأحدهم يقف في مركز الحلقة والآخرون يضربونه على قفا رقبته وهو يدور ويقفز محبوسًا بينهم ويحاول حماية رقبته بيديه ويحاول أن يعرف من ضربه: إذا عرف الضارب يخرج من مركز الحلقة. كانوا يفتحون الحلقة عندما أدنو، وأنا أمرّ وأدخل من الباب وأرمي دفتري على السرير وأتابع طريقي إلى الحمّام. كانوا ينادون عليّ كيّ أشاركهم اللّعبة وكنت لا أعرف ماذا أردّ.

بعد أسابيع اكتشفت أنّني أصبحت Single، وحدي في الغرفة من دون أن أنتبه. شريكي ترك الجامعة وأنا لم أكن أعرف. أحد الجيران في الجهة الأخرى من الطابق الخامس أخبرني عندما التقيته في المصعد. قال إنّ شريكي سافر إلى أهله في الأردن ولن يعود. أنا انتظرت أسبوعًا آخر ثمّ جلبت صندوق كرتون وجمعت ثيابه ودفاتره وكتبه ووضعتها في الصندوق. وضعت الصندوق تحت سريره ونسيت أنّه موجود. نسيت؟ كلّما أتى العمّال البنغلادشيّون لتنظيف الغرفة (الكنّاسة والمسح) يشتكون من الصندوق ويضحكون. يرفعونه على الكرسي أو الطاولة ويضحكون. في تلك الفترة، أينما نظرت كنتُ أرى ناسًا يضحكون. حتى رفاق شريكي في السكن وهؤلاء ليسوا من طلاّب الجامعة (أحدهم أخبرني اسم جامعته) صرت ألتقي بهم وأنا أقطع بلس أو جاندارك فينادون عليّ

ويتكلّمون معي كأنّني من أعزّ أصحابهم. بضحكون ويربتون على كتفي بأيديهم القويّة وأنا أتذكّرهم في حلقة أمام باب غرفتي، قمصانهم ملوّنة، لكن نظيفة، أنيقة ومكوية، ومن وجوههم تفوح رائحة عطور. الآن وأنا أتذكّرهم وأحكي عنهم، أفتقدهم، هل تصدّق ذلك؟ أحدهم كان يلبس قميصًا أصفر اللّون، وينتعل جزمة شائعة آنذاك Texas boots وطوال الوقت يخبط يده على الجزمة. يرفع ساقه، يطويها أمامه، ويخبط يده على الجزمة. عندما يراني أخرج البيض من البراد كي أسلق بيضًا يضحك ويقول: «أهمّ شيء البيضات». يمدّ رقبته من الباب وهو واقف في الخارج مع رفاقه ويلفظ عبارته ويضحك. وأنا أضحك أيضًا.

كنت أضحك؟ أرسم التعابير على وجهي. يكفي أن تُمثّل الإيماءات، أليس كذلك؟ إذا قطّبت وجهك يظنّ من حولك أنّك حزين. إذا ابتسمت يظنّون أنّك سعيد. كنت أرسم على وجهي التعابير. الآن، وأنا أحكي عنهم وأتذكّر كيف يفتحون الحلقة ويطلبون منّي أن أشارك، أعرف أنّهم هم أيضًا جزء من قصّتي. (مع أنّني لا أعرف أسماءهم، هم جزء من قصّتي).

كنت أنزل عند المساء مع أنطوان أو أحد الأصدقاء من الداخلي ونمشي على الكورنيش. أو أنزل وحدي. صرت أفضّل المشي وحدي. هكذا أسير بالسرعة التي أريدها. وإذا كنت في مزاج لا يناسب الحديث لا أضطّر للحديث. في تلك الفترة كان الكورنيش يزدحم بالناس ليلاً. عربات الذرة والفول والكستناء والفستق تنتشر على الرصيف والناس كل ليلة في مهرجان. سيارات مشرعة

الأبواب وآلات تسجيل على سطوح السيّارات وأزواج عشّاق يجلسون على الدرابزين. اعتدت على السير لا صوب هذه الزحمة بل في الاتّجاه المعاكس. أمشي من منارة الجامعة باتّجاه الحمّام العسكري، هذا الكورنيش أقلّ زحمة، ولا أذهب صوب عين المريسة.

كنتُ أتبع نصيحة الطبيب. أمشي وأصغي إلى البحر. تلطم الأمواج الحائط ويرتفع رذاذها ويطير فوق الدرابزين. أشعر بالبلل على جانب وجهي. أزيح خطّ سيري، أبتعد قليلاً عن الدرابزين وماء البحر، وأتابع المشي. في نقطة محدّدة من الطريق أرى ضوء المنارة، في الأعالي، يدور قاطعًا السماء السوداء. السيارات تعبر الجادة وأنا أدور وأرجع من حيث أتيت. صرت كل ليلة أنزل وأمشي على الكورنيش. أحيانًا كنت أرى فتيات من الجامعة يركضن بالثياب الرياضيّة وعلى أذانهنّ سمّاعات: الراديوهات الصغيرة في الأيدي، وإحداهنّ تنظر إليّ وأنا أمرّ. كانت معي في أحد الصفوف وأنا لم أنتبه إلاّ بعد أن ألقت عليّ التحيّة.

ذكرت هذه الفتاة فقط كي أقول هذا: كنتُ موجودًا والآخرون كانوا يرون وجهي ويعرفون وجهي ويتذكّرون وجهي. كنتُ موجودًا ولم أكنْ تمامًا أنتبه. هذا كل شيء.

المشي نفعني أم مرور الوقت؟ تقدّم الفصل وأنا أذهب إلى كل محاضراتي (في الهندسة الحضور إلزامي) وأسجّل في الدفاتر كل شيء. مرة واحدة انتبهت وأنا في القاعة الكبيرة (اسمها ELH) والدكتور يكتب على اللّوح شيئًا على علاقة بالقانون الثاني

للديناميكيّة الحراريّة (Second law of thermodynamics)، انتبهت أنّني لا أنسخ ما يكتبه. لم أكن أكتب رموزًا ومعادلات، لم أكن حتّى أكتب كلمات إنكليزية! نظرت إلى الورقة وشعرت بالضيق (بالخوف؟). كانت الورقة سوداء، كلمة واحدة تتكرّر بخط صغير (كأنّه ليس خطّي) من البداية إلى النهاية: «إسمي».

مع هذا تحسّنت. كنت أشعر أنّني مرة أخرى أرى الألوان، أشمّ الرّوائح، أسمع الأصوات. في اللّيل أنام. عندما أنام أرى منامات أتذكّر بعضها وأنسى بعضها. أرى وجوهًا أعرفها وأرى وجوهًا غائمة، كأنّها تهرب وراء الضباب. هذه الوجوه الهاربة تُسبّب لي ارتباكًا. مع هذا تحسّنت.

دخلت فترة الامتحانات مرة أخرى وفي هذه المرة وجدتها سهلة. رفاقي قالوا: «أصعب». أنا قلت: «أسهل». في السنة الثانية لم أواجه صعوبات. اكتشفت أنّني أحبّ الدرس: أحبّ أن أفتح الكتاب وأقضي ليلتي في عالم منظم، عالم بقوانين، وعليك أن تستوعب هذه القوانين، وعندما تستوعب القوانين تبلغ ما تشاء: لا تستعصي عليك مسألة. أحببت الدرس وأحببت القراءة. ما زلت أحبّ القراءة في العلوم والأدب معًا. أثناء سنتي الثالثة درست سوفوكليس (مادّة اختيارية) والتراجيديا اليونانيّة. أذكر أستاذًا يسألنا في الحصّة الأولى من يؤمن بالقدر Fate ومن لا يؤمن بالقدر، ويطلب منّا أن نرفع الأيدي ثمّ يحصيها. كان ذلك طريفًا جدًّا: بدا مهتمًّا إلى أقصى حدّ بهذه المسألة.

الهندسة أربع سنوات. عندما تخرّجت توقّفت عن الدراسة سنة

واحدة. في السنوات الأربع ما قبل التخرّج وقعت حوادث كثيرة. التقيت أصدقاء وابتعدت عن أصدقاء. اكتشفت أشياء ونسيت أشياء. كي أجني مصروفي اشتغلت فترات قصيرة في المكتبة وفي المختبر وفي غرفة التلفون. ذهبت إلى أماكن ورجعت من أماكن. أشياء كثيرة تقع وطوال الوقت تدخل الأشياء إليك وتحتلّ جوارير تخصّها في خزانة الذاكرة. هل تغيّرت وأنا في الجامعة؟ الواحد يتغيّر طوال الوقت. وفي الوقت ذاته لا يتغيّر. هل تغيّره الحوادث التراجيديّة فقط؟ لعلّه في تلك اللّحظات ينتبه أكثر إلى الأشياء المهمّة. ربّما ليس في الساعة السيئة ذاتها. لكن بعد مرور الزمن، عندما يتذكّر، ينتبه.

في أربع سنوات حدثت أشياء كثيرة. في قلب الجامعة ذاتها وقعت بناية. سمعنا الدوي في اللّيل وخرجنا إلى الشرفة ولم نجد برج الساعة. وقع البرج وتحوّلت غرفة التلفون إلى مركز اتّصالات دولي. لا أنسى تلك اللّيالي بعد وقوع الكولدج هول، وأنا قاعد في المكتب المضاء بلمبة صفراء أتلقى تلفونات من الأردن، من الخليج، من أوروبا، من أستراليا، ومن أميركا... وحتى من جزر القمر. رجل اتّصل وطلب ابنه (غرفة 419) وأنا كبست الزرّ وسألت نفسي أين هي جزر القمر هذه؟

كان إيليا يجيء ويزورني فنقعد ونشرب نسكافيه ونحكي أو ننزل ونمشي في الجامعة أو نذهب ونقعد في الكافيتريا أو نخرج ونأكل شيئًا في أحد المطاعم المجاورة. كان يحبّ الهمبرغر عند «يونيفرسال». نقعد هناك ونحكي بينما نأكل وأنا أتذكّر أوّل مرة

أخذني واشترى لي مثل هذه السندويشة (كنت مريضًا بالحصبة، أخبرتك. عندما شفيت أخذني واشترى لي «همبرغر» وقنينة بيبسي. كانت المرة الأولى التي أذوق فيها الهمبرغر. سال المايونيز على أصابعي. والسمسم من الخبز المستدير وقع على قميصي، وهو نفض قميصي بيده. أَتَذَكَّرُ؟).

في إحدى هذه الزيارات أخبرني أنّه قرّر أن يتزوّج. في زيارة بعدها قال إنّه حسم أمره: لن يتزوّج أبدًا. كان يحكي ويضحك، وكنت أضحك أنا أيضًا. في زيارة أخرى أعلمني بمشروعه الجديد: استأجر محلاً في الأشرفيّة، غير بعيد من البيت، ويُجهزه الآن. سيفتح مطعم شاورما وسندويشات.

كنت أرى أخواتي بين حينٍ وآخر. عندما انتبهتُ أنّ أحد أولاد جوليا ينظر إليّ بالعينين الواسعتين للصبي المعلّقة صورته على حائط الصالون (في زاويتها شريط أسود)، عندما انتبهت إلى نظرته ورأيته يدور حولي ويريدني أن ألعب معه، سألتُ نفسي كيف يمرّ الزمن؟

بعد التخرّج استأجرت أنا وثلاثة أصدقاء بيتًا في «المكحول» بجوار الجامعة. عملت وقتًا في قسم الصيانة في الـ A.U.H والإدارة أرسلتني في دورة تدريبيّة (90 يومًا) إلى «جون هوبكنز» في أميركا. أحد المهندسين هناك قال لنا أثناء جولتنا الأولى:

It's not healthy for hospital machines to break down.

ليس صحيًا أن تتعطّل الماكينات في المستشفى.

في جولة أخرى التقيتُ طبيبًا من أصلٍ لبناني وتكلّمنا. عرف

أنّني متخرّج من الـ A.U.B وأخبرني أنّه جاء مع أهله إلى أميركا أثناء حرب السنتين وعندما انتهت حرب السنتين لم يفعلوا مثل غيرهم: لم يرجعوا إلى بيروت، وظلّوا في أميركا. أخذني إلى بيته في بالتيمور. زوجته إيطاليّة وكل يوم تعمل بيتزا أو سباغيتي وهو ما زال يحبّ «اليخاني» والرزّ المفلفل لأنّه تعوَّد على هذا الأكل. ابنته في العشرين وتحبّ الأكل الياباني و«معها حقّ». قال إنّه وزوجته اتّفقا مع ابنته على هذه النقطة. ويخرجان دائمًا إلى مطاعم تقدّم «الياباني» لكنّه يحبّ ـ في عطله ـ أن يقعد ويطبخ فاصوليا أو «يخنة قرنبيط». أخبرني أنّه يطبخ حتى «المحاشي» وابنته تحبّ «الكوسى وورق العنب». قبل أن أغادر عائدًا إلى بيروت سألني هل أفكّر في المجيء والعمل هنا إذا عُرِضت عليّ فرصة عمل؟ قلت لا أعرف، هل هذه الفرصة موجودة الآن؟ قال «maybe». سكت لحظة وقال إنّ هذا ممكن. لا أدري هل كان ذلك ممكنًا أم لا، لكنّني رجعت إلى الـ A.U.H وأكملت السنة فيها وعندما انتهت السنة أخذت منحة وأكملت دراستي في «الأميركيّة». اعتدت على الجامعة ووجدّت أنّني أحبّها. في الشقة التي استأجرناها في «المكحول» وبقينا فيها ثلاث سنوات كنّا نضحك على بعضنا بعضًا لأنّنا جميعًا من خريجي الهندسة لكنّنا لا نعرف أن نصلح «بالوعة المجلى». كانت الشقّة في بناية قديمة، على حائط المطبخ ينبت عفن، واللمبات تحترق وحدها: كل أسبوع نغيّر اللمبات (أسلاك قديمة) وتحترق. ولم نغيّر الأسلاك. وأنت في ذلك العمر تقدر أن تؤجّل أشياء كثيرة.

أحيانًا كنتُ أرى أمّي في المنام. أرى أمّي الأولى وأرى أمّي

الثانية. كنتُ أرى أمّي التي ماتت وهي تبكي وتتمسّك بيدي وأنا أجلس جنبها على سريرها. أرى وجهها وهي تمسح أيقونة العذراء بالزيت: تلتفت عندما تراني أدخل مع حقيبتي عرقان الوجه، تبتسم وتسألني كيف كان يومي في المدرسة، هل أكلت سندويشتي، وماذا تعلّمت اليوم في الصفّ؟ أذكر الصبي الذي كان أنا كان أن يتقافز حول السرير ويُخرج كتبه وينشرها على السجادة. يفتح الكتب ويدلّها إلى الصور في كتاب الجغرافيا. يقول «تعلّمنا اليوم في الحساب» ويهذي وهي تصغي. أراه يسمع نداء من المطبخ ويخرج كالسهم ويرجع حاملاً تفاحة أو بسكويتة. في المنام أرى نفسي في بيت الأشرفيّة، ومرّات أرى رفاق الجامعة هناك، معي.

أرى أيضًا أمّي الأخرى: الأمّ التي خرجت من بطنها والتي أفكّر دائمًا أنّها ماتت وهي تحميني أنا وأخوتي من الرصاص الذي حطّم السيارة. أرى أيضًا أخوتي. أرى وجوهًا طفلة وأفكّر أنّهم أخوتي. أرى الشعر الأشقر وأرى الوجه الذي رأيته وأنا نصف نائم في ملجأ السيوفي. لم تكن حقيقيّة في الملجأ. كانت رؤيا. كنتُ هاجعًا بين الأجسام النائمة، وفي الخارج قنابل ورصاص، وجاءت وأشعلت قداحة وبحثت عنّي. كانت تبحث عنّي؟ أفكّر أنّها ذهبت مع أخوتي إلى مكان بعيد وأنا وحدي فتحت باب السيّارة وخرجت من السيّارة. كانوا يقوّصون وأنا لم أسمع، أنا كنتُ نائمًا. عندما فتحت عينيّ، عندما سال السائل الأحمر الحار وغمرني، فتحت عينيّ ومددت يدي ودفعت الباب (أنا مددت يدي، أنا سحبت المسكة؟) وخرجت من السيارة. أقدر أن أتخيّل الرجال في المشمعات الواقية، أقدر أن أتخيّل

السيّارة البيضاء تحت الرذاذ، أقدر أن أتخيّل الزجاج يتحطّم. في المنام أرى أمّي، أرى تخاريم في قبّة قميصها، أشمّ رائحة دافئة وأعرف أنّها رائحتها. ماذا تقول لي؟ ماذا تخبرني؟ ماذا تريدني أن أفعل؟ أرى وجهها ـ أظنّ أنّني أراه، عندما أستيقظ ترجع الملامح إليّ، لكنّ الوقت يمرّ، والآن باتت الملامح غائمة ـ لكنّني لا أرى وجه أبي. سبب أجهله يمنعني. لا أرى وجه أبي لكنّني في المنام أسمع صوته. هو الذي حملني وقال لي أن ألقط المطرقة المعلّقة على الباب الأخضر ثمّ أن أفلّتها. هكذا نقرع الباب. هكذا يسمعنا أهل البيت. يسمعون ويأتون ويفتحون لنا البوّابة. هكذا ندخل البيت. (بيت من؟ بيتنا؟ بيت أقارب؟ أين البيت؟) أسمع صوت أبي ولا أرى وجهه. لكنّني أرى تفاصيل من بيتٍ قديم وأظنّ أنّ هذا كان بيتنا: البيت حيث عشت حتى جاء ذلك اليوم وقوّصونا على خط التماس.

أتذكّر تفاصيل: الوجاق الحطب، هذه وجاقات لا تجدها على الساحل، صحيح؟ هذه للبرد، للجبال العالية. أرى فرن الوجاق، أرى المسكة الحديد المنقوشة. أفتح الباب الصغير وهم يُنبّهون عليّ. أبي. أسمع صوته، أشمّ رائحة تبغ وعرق. هذه رائحته. أرى قشر الليمون يتحمّص على الوجاق، يفوح العطر ويملأ الغرفة. أسمع صوته يقول «لا تتركوا باب الغرفة مفتوحًا». من يُكلّم؟ الغرفة دافئة لكنّ الممر بارد. أرى نافذة وأرى ثلجًا يتساقط خارج النافذة. أرى تعريشة عنب مرفوعة على أعمدة. أرى الثلج يُغطّي الأغصان، أرى الثلج يُغطّي الأرض، أرى الثلج يُغطّي خزّان الماء وراء التعريشة.

منامات تتكرّر ومنامات تتراجع كما يتراجع مدّ البحر وبعد ذلك لا أراها أبدًا. مرّت السنوات والآن أراهم أقلّ. مرة، قبل سنوات، رأيت أنّني أمشي على طريق تراب، بين جلول فاكهة، وأبي يسير أمامي. كنت أراه من خلف، وأرى يديه وعلى يديه شعر، وبين حين وآخر يمدّ يده ويقطف ورقة من شجرة. أنتظره كي يلتفت، أنتظره كي أرى وجهه. أريد أن أرى الوجه. الشمس قوّية، تلمع على الأوراق. أرى جنادب تتقافز بين أعشاب أيبستها الشمس. أرى «شموسة» (سحلاة) تتشّمس على صخرة. في لحظة من اللّحظات أنتبه أنّ أبي توقّف واستدار: أنتبه أنّه ينظر إليّ، يتأمّلني وأنا أتأمّل الأشياء ويبتسم. أعرف أنّه يبتسم. أرفع عينيّ وأنظر إلى وجهه وأعرف أنّه يبتسم. لكنّني لا أرى وجهه. في منامات أخرى يناديني باسمي ويطلب منّي شيئًا. أقول شيئًا لا أعرف ماذا يكون وأذهب إليه... يبدو أنّ هناك مسافة عليّ أن أقطعها قبل أن أبلغه. في نصف المسافة، قبل الوصول، أستيقظ.

حكيتُ لك هذه المنامات لا لأنّها تعني شيئًا ولكن لأنّك سألتني. في فترة من الفترات خطر لي أن أكتب مناماتي في دفتر. ربّما إذا فعلت ذلك وصرت أقرأها وأجمعها بعضها إلى بعض، ربّما عندئذٍ أُركب مشاهد كاملة من حياتي قبل الـ 76. لم أفعل ذلك. حاولت مرة. كتبت منامًا. ثمّ قرأته. عندما قرأته اكتشفت أنّني لم أكتب شيئًا. كتبت لكنّ الكلمات التي كتبتها لم ترسم أمامي المنام. لا أعرف كيف أكتب. الكتابة صعبة. كنت أكتب فأضيع في تفاصيل ولا أعرف كيف أرجع إلى الصورة التي أريدها. تضيع الصورة في التفاصيل ولا أجد منامي. بعد ذلك لم أجرّب.

ربّما الآن إذا جرّبت أقدر. لكنّني صرتُ أرى منامات أقلّ. أو أرى منامات لكنّها لا تتعلّق بزمن الطفولة. مرّت السنوات وبيت الذاكرة تكاثرت غرفة. ذكريات جديدة ترقد فوق ذكريات قديمة، طبقة تدفن طبقة. مناماتي تغيّرت.

أحبّ عملي الآن، أحبّ التدريس، وأحبّ الوقت الذي أمضيه في «الشركة». معظم عملي توجيهي، أشغالنا بين لبنان والخليج، في إحدى الفترات أردنا أن نتوسّع (ليس أنا، الآخرون، أنا عمومًا أُفضّل التدريس على الشركة)، الآن أشغالنا مقبولة، ولم نتوسّع. أسافر أحيانًا إلى أوروبا في رحلات عمل؛ أحيانًا آخذ عطلة وأسافر. مرّات أخطّط لبناء بيتٍ في مكانٍ ريفي، اكتشفت بمرور الوقت أنّني أحبّ الطبيعة، أحبّ الأشجار وأحبّ أن أزرع شيئًا.

أعيش هنا منذ سنوات. من النافذة (هذه النافذة) أتأمّل البحر ليلاً. أرى مراكب الصيّادين، أرى المصابيح المتباعدة. المراكب لا تُرى، لكنّ المصابيح أراها. وأفكّر أنّني عشت سنوات طويلة وأنا أنظر إلى هذه المصابيح. في أكثر من فترة، كانت هذه الأضواء تختفي. عندما يتلوّث البحر أرى بقعة سوداء من الوقود تغمر الماء، وإذا جاء اللّيل لا تُرى الأضواء. يدوم ذلك وقتًا قصيرًا ثمّ أرى الأضواء مرّة أخرى.

من تلك النافذة أرى أشجار الجامعة. أحبّ هذه الأشجار. قديمة وجلبوها من أماكن بعيدة وتراها بعد كل هذا الوقت واقفة: العصافير تبني عليها الأعشاش وخضرتها تدوم على مدار السنة.

بينها أشجار تتحوّل في فصول محدّدة إلى إعصار من الزهور الحمر، لن تُصدّق لونها.

لم أعدْ صغيرًا. أدنو من الأربعين وأشعر بالسنوات التي عشتها. على جوازي وعلى هويتي مكتوب: 29 أيلول 1971، لكنّني حتى اليوم لا أعرف تاريخ ميلادي. لا أشعر أنّني في السابعة والثلاثين، ولا أشعر أنّني في الأربعين. لا أعتبر نفسي شخصًا كئيبًا ولكنّ هذا لا يمنعني من الشعور بوطأة السنوات التي مرّت: أشعر أنّني جاوزت الأربعين. معظم أصدقائي أكبر منّي سنًّا. عندي صديقان مقرّبان هنا، في الجامعة، وعندي أصدقاء خارج الجامعة. عمومًا كلّهم أكبر منّي سنًّا. هذا غريب، لا؟ أنطوان كتب لي مرّة أنّ هذا الشعور بالزمن على علاقة ببقائي حتى الآن بلا زواج. سألته (نتبادل إيميلات) هل صار أصغر سنًّا عندما تزوّج؟ أرسل إليّ بالإيميل وجوهًا ضاحكة. لعلّه على حقّ.

لم أتزوّج لكنّني أشعر بالراحة. كانت هناك مراحل وجدت فيها صعوبة في البقاء وحدي؛ الآن تعوّدت على هذا. قبل سنوات أوشكت أن أرتبط، ثمّ لم أفعل. الآن وأنا أحكي لك هذا تذكّرت ـ لا أعرف لماذا ـ ندوة في الجامعة قبل أن أتخرّج. إحدى جمعيّات المخطوفين والمفقودين في الحرب الأهلية نظّمت ندوة ووزّعت على الحاضرين قوائم: كانت قوائم بأسماء أشخاص فُقدوا في الحرب ولم تظهر جثثهم بعد ذلك. أشخاص لا أحد يعرف ماذا حدث لهم، أو لا أحد يقدر أن يتأكّد ماذا حدث لهم. كنتُ أقرأ الأسماء، أعمدة من الأسماء مرتبة كجداول الضرب، أقرأها

وأسأل أين إسمي؟ هل إسمي بين هذه الأسماء وأنا لا أعلم؟ وأمّي؟ وأبي؟ وأخوتي؟ هل أسماؤهم هنا أيضًا؟ لكن ماذا لو أنّ أبي بقي حيًّا؟ أو أمّي؟ أو أخوتي؟ كيف أتأكّد أنّ عائلتي قضت في السيارة؟ ربّما ما زالوا أحياء. . . ربّما كنت خارجًا مع عائلة أخرى. مع أقارب، خالة أو عمّة، خال أو عمّ، كيف أعرف؟ ربّما أهلي بانتظاري حتى هذه اللّحظة!

الآن لا أفكّر في هذه الأشياء. وعمومًا لا أحكي عن ذلك. أخبرتك أنّني منذ زمن بعيد لا أحبّ أن أحكي كثيرًا. لا أحبّ الكلام. أفضل أن أنظر من هذه النافذة. أحبّ التدريس، هذا صحيح، لكن وأنت تُدرّس لا تشعر أنّك تتكلّم. لا أعرف كيف أقول هذا لكنّ الكلمات ليست الأرقام والرّموز والقوانين والمعادلات: عندما أشرح قوانين ميكانيكيّة أشعر أنّني لا أحكي. أشعر أنّني ساكت. ساكت ولكن أتواصل مع آخرين. ساكت ولكن أُعلّم آخرين، أدلّهم. السكوت. هذا جيد. حكيتُ لك. هذا صحيح أيضًا.

أعرف من نظرتك ماذا تفكّر. لكنّني حقًّا لست شخصًا كئيبًا. سأخبرك شيئًا: قبل سنوات خطر لي أن أحتفل بعيد ميلادي. أعرف أنّ هذا التاريخ اعتباطي (29 أيلول). ومع هذا قلت لنفسي اليوم عيد ميلادي وسأحتفل. أنا لا أفعل هذا أبدًا ولا أدري لماذا فكّرت فيه عندئذٍ لكن هذا ما حدث. الباتيسري الذي أحبّ حلوياته قريب، ليس بعيدًا. لبست ثيابي وذهبت إليه.

وجدته مقفلاً. كان الجو حارًا ورطبًا. والسيّارات تزدحم في

الطريق. ومع هذا لم أرجع من حيث أتيت. تذكّرت أنّ هناك «باتيسري» آخر أقصده أحيانًا، أبعد من هذا، لكنّه ليس بعيدًا جدًا. وهكذا تابعت السير. قلت في نفسي: «إذا كان هذا أيضًا مقفلاً أعود إلى البيت».

لم يكن مقفلاً. دفعت الباب ودخلت فوجدت الهواء باردًا، طيب الرائحة. ارتحت لحظة دخلت. كان المكان فارغًا، لا أحد يجلس إلى الطاولات، ووراء برّاد الجاتوه الزجاجي تقف (في اللّباس الأبيض) فتاة، شابة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، أصغر سنًّا من طلابي. ابتسمتْ وهي تسألني عن حجم القطعة (طلبتُ القطعة التي أحبّها ولم أحدّد الحجم) ثمّ تدلّني بأصبعها إلى حجمين، متوسط وكبير. طلبتُ القطعة الكبيرة وذهبت وجلست إلى طاولة جنب الزجاج. كان المكان هادئًا، والأصوات في الخارج خافتة، كأنّ مسافة بعيدة تفصلني عن الطريق. نظرت إلى السيّارات وفكّرت في أشياء متباعدة وعندما شعرت بها تنحني وتضع الصحن على الطاولة، التفت. ابتسمتْ لي. قلتُ شكرًا.

قالت لي شيئًا، لا أعرف ماذا بالضبط، ربّما تمنّت أن أستمتع بقطعة الحلوى، كلماتها لا أذكرها، لكن أذكر صوتها. كانت لطيفة، فتاة شابة لطيفة، ووضعت القطعة أمامي (الصحن والشوكة والسكين، وفي وسط الصحن القطعة الكبيرة بالشوكولا والكريما) ثمّ عادت إلى مكانها. هذا كل شيء. لكنّ شعورًا حلوًا ملأ نفسي.

جلستُ وأنا استمتع بهذا الهدوء. هدوء غريب خَيَّمَ عليَّ وأنا أنظر إلى القطعة في الصحن ثمّ التفت وأنظر إلى الخارج.

السيّارات تمرّ. رجل يعبر الرصيف حاملاً كيسًا. رجل آخر يمرّ وهو يُكرّج أمامه عربة فيها طفل. امرأة تخرج من سيارة، وتحاذر لئلاّ تقع، بسبب الكعب العالي. بوق سيارة، البوق هادر، لكنّني أسمعه خافتًا. الزجاج يفصلني عن الشارع وأرى ناسًا عائدين إلى بيوتهم وأرى المصابيح تُضاء في الشارع، في المتاجر، وفي نوافذ البيوت.

قطعت القطعة قسمين. أكلت القسم الأوّل ثمّ وضعت الشوكة من يدي ونظرت إلى الخارج. من دون أن أغمض عينيّ رأيت صورًا، ذكريات كثيرة مرَّت وأنا قاعد هكذا، والمكان ساكن.

لم يدخل أحد المكان ولم يخرج أحد طوال الوقت. كنتُ أشعر بالفتاة هناك، وراء البرّاد البعيد، وأسمع موسيقى خافتة. لكنّني لم أكن أفكّر فيها. كنتُ في ذلك الباتيسري، ولم أكنْ. كنتُ في مكان آخر.

حملت الشوكة وأكلت النصف الثاني من القطعة. كانت أطيب قطعة جاتوه أكلتها في حياتي. أكلت القطعة الكبيرة كلّها وجمعت الفتات بالشوكة وأكلته أيضًا. أكلت القطعة كلّها وشعرت بالسعادة.

روايات للمؤلّف:

1 ـ **سيّد العتمة**، دار الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، دار الآداب، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، دار الآداب، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامّة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ **رالف رزق الله في المرآة**، دار الآداب، 1997.

6 ـ **كنتُ أميرًا**، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي** المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ **يوسف الإنجليزي**، المركز العربي الثقافي، 1999.

9 ـ **رحلة الغرناطي**، المركز الثقافي العربي، 2002.

10 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الأوّل)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2006.

11 ـ **بيريتوس: مدينة تحت الأرض**، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005، طبعة ثانية 2006.

12 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الثاني)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005.

13 ـ **تقرير ميليس**، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2005.

14 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الثالث)، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2007.

ربيع جابر

الاعترافات

«أبي كان يخطف الناس ويقتلهم. أخي يَقول إنَّه رأى أبي يتحوَّل في الحرب من شخص يعرفه إلى شخص لا يعرفه. هذا أخي الكبير. أخي الصغير لم أعرفه، أعرف صورته، أعرف وجهه، يشبهني في الصور ـ كان يشبهني ـ أكثر مّما يشبه أخي الكبير. أسمّيه أخي الصغير وكنّا كلّنا في البيت نسمّيه ـ في رؤوسنا نسمّيه، حتى من دون أن نذكره ونحن نحكي، كانت صوره تملأ البيت ـ ماذا كنت أقول؟ أسمّيه أخي الصغير ولم يكن أخي الصغير ولكنّه الصغير لأنه ظلَّ صغيرًا، لأنَّه لم يكبر، لأنَّهم قتلوه وهو صغير.

ISBN 978-9953-68-320-4

9 789953 683201

المركز الثقافي العربي

دار الآداب - بيروت